يا نفس توبي

تأليف
أنور الداود النبراوي


بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحمد لله الكريم التواب.. الملك الوهاب.. الهادي إلى الصواب.

﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ، ذِي الطَّوْلِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غَافر: ٣].

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد إمام المتقين والتائبين، وسيد المنيبين والمستغفرين، وعلى آله وصحبه أجمعين.. وبعد.

يا نفس توبي.

كلمات وتأملات عن التوبة، ذلك الموضوع الحي والحيوي، والذي هو حديث كل ساعة؛ فالتوبة مفتاح التوفيق والاستقامة، وماء التّطهُّر من الأدران، وقارب النجاة من حياة الضياع والغفلة، وصمَّام أمان في مواجهة فتن هذا الزمان وكل زمان.

وفي خِضَمِّ الحياة المعاصرة، حيث قمة الانشغال بجمع الحطام، وبذل النفس، والجهد والوقت، ومواصلة الكد والكدح، والصراع والنزاع من أجل فتات، والانبهار بالتقنيات والماديات، وغيرها من الأمور، وألوان الغرور، فإن الإنسان في هذه الحياة الدنيا، ومن خلال ذلك كله قد يغفل وينسى لقاء الله، وكيف سيلاقيه؟ ..

وهو الأمر الذي لابد منه طال الزمان أو قصر؛ لهذا كان هذا الموضوع ذكرى في عالم المادة والشهوة، وتذكرة في زمان يُدفع الناس فيه نحو النسيان والغفلة.

يا نفس توبي.

هي قطوف .. جمعتها أزهارًا زاكية من بساتين الصالحين؛ لأنثرها بين يدي القارئ الكريم.

هي إشراقات .. أرجو بها القبول والثواب من الله التواب الكريم، لي ولوالدي ولمن له حق علي وللمسلمين أجمعين، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

قال تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا *مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النِّسَاء: ١٤٦-١٤٧].

أنور الداود النبراوي

باحث في الدراسات القرآنية والتربوية

E-mail: Hanlan1224@gmail.com

Twitter: @AnwarAlnabrawi

أول الخطى

ما أجمل أن يعرف العبد الهدف الذي يقصده، والغاية التي يسير إليها، وأن يدرك الطريق إلى الله، والأجمل من ذلك كله أن يضع قدميه بثبات ويقين على ذلك الطريق، نحو المقصد السامي والنبيل، وما أسعده حين يجعل أول تلك الخطوات هي تطهير النفس، وتزكيتها من الشوائب والعلائق التي تعيقها عن الوصول إلى الغاية الرشيدة، والحياة السعيدة، في جنة الرحمن وتحت ظلال الرحمة والرضوان، فإن هذا كله لا يتأتّى في ظل وجود ذلك الركام من الموانع والصوارف من الذنوب والآثام.

لهذا كان الحديث إلى النفس؛ فهي أداة العمل التي زوَّدها الله باستعدادات الخير والشر، والهدى والضلال، فالنفس إما إناء للطاعة والتقوى، وإما وعاء للضلال والفجور، وقد عظم الله أمرها وأقسم بها فقال سبحانه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشّمس: ٧-٨].

والنفس تدعو إلى التكاسل والعصيان، والتقاعس عن تأدية أوامر الرحمن، ومقتضيات الإيمان، تارة بالوساوس نحو المهاوي والهلكات: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

وتارة تأمر بالسوء، وفعل ما يسوء فتجلب للعبد فساد الحال، وسوء المآل إلا من عصم الله: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يُوسُف: ٥٣].

لذا كان لابد من مجاهدة النفس، وتخليصها من كل ما يشينها ويدنسها؛ لاسيما وأنها قد جُبلت على الضعف والتقصير، وحب الدنيا، والملذات، ومسايرة سلطان الشهوات، قال تعالى: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ *وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ *وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العَاديَات: ٦-٨].

ويكون ذلك بالإقبال على الله، والرجوع إلى الحق، واتهام النفس، ودعوتها إلى التوبة، لاسيما وأن الله سبحانه يحب لعباده التوبة بل وأرادها لهم:

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النِّسَاء: ٢٧].

فإن الله يريد لعباده اليسر والسلامة، والسعادة في الدنيا والآخرة، والذي لايكون إلا في هذا الدين، والتمسك بأوامره، والتحاكم إلى أحكامه، والتأدب بآدابه، متى أردنا النجاة والفوز والفلاح.

فإن للعبد أعداءً متربصين؛ وهناك نفسٌ تدعوه إلى الرغبات والشهوات، وهوى يهوي به إلى الدركات والهلكات، ودنيا غَرورٍ ذات فتنٍ وزخارفَ وملذاتٍ، وشيطانٌ مريدٌ وضع التدابير وأعلن العداوات، وأتباعُ ضلالٍ وأربابُ غوايةٍ يريدون به الردى والضياع، وخسارة الدارين.

وإن السبيل الأمثل لتزكية النفس ونجاتها وفلاحها، ومقاومة أعدائها، والتصدي لحيلهم؛ إنما هو بالتوبة والعودة إلى الحق.

ومن تأمل نهاية المطاف، وعاين عواقب الأمور ومستقبلها، ونظر بعين الأناة والبصيرة، فله حينها أن يتساءل: أين لذة المعصية؟! .. وأين تعب الطاعة؟!

لقد رحل كلٌّ بما فيه؛ رحلت الطاعة وبقيت لذتها، ورحلت المعصية وبقيت حسرتها، نعوذ بالله من العمى والخذلان.

﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.[الحَجّ: ٤٦]

وكما قيل: "فليت الذنوب إذا تخلّت خلت!"[١].

أي: ليتها حين تخلّت عنك وتركتك، تركت لك بالًا خاليًا من الهموم.

---

١ صيد الخاطر لابن الجوزي (ص: ٢٥).

يقول يحيى بن معاذ رحمه الله: "مَنْ أَرْضَى الْجَوَارِحَ فِي اللَّذَّاتِ، فَقَدْ غَرَسَ لِنَفْسِهِ شَجَرَ النَّدَامَاتِ"[١].

تفنى اللذاذة ممن نال صفوتها من الحرام ويبقى الوزر والعار

تبقى عواقب سوء في مغبتها لاخير في لذة من بعدها النار[٢]

***

١ ذم الهوى لابن الجوزي (ص: ٢٧).

٢ ذكرهما ابن القيم في روضة المحبين (ص: ٣٣٠)، وقال: وقال عباس الدوري :كان بعض أصحابنا يقول: كان سفيان الثوري كثيرًا ما يتمثل بهذين البيتين.

لماذا نتوب؟

نتوب .. لأن المعاصي سواد، والتوبة جلاؤها.

نتوب .. لأن التوبة من أفضل العبادات وأجلِّها.

نتوب .. لأن التوبة هي نقطة الانطلاق نحو الحياة الكريمة.

نتوب .. لأن التوبة دعوة للنفس نحو التطهر، والاستعلاء، والرُّقي.

نتوب .. لأن للتوبة أهمية بالغة، وثمرات مباركة، في الدنيا والآخرة.

نتوب .. لأن الله يتفضل على التائب برحمته ورضوانه، وكرمه وإحسانه.

نتوب .. لأن التوبة بداية التصحيح، ومفتاح الأمان من غضب الجبار وعقابه.

نتوب .. لأننا جميعا عبيد لله لا للشهوة والهوى، وقد أُمرنا بطاعة ربنا الذي نحن إليه راجعون، وعما عملنا واقترفنا محاسبون ومجزيون.

نتوب .. لأن التائب الصادق كما هو مشاهد يعود أكمل وأسعد وأفضل مما كان قبل التوبة، شهد بذلك عقلاء كل زمان ومكان.

نتوب .. لأن التوبة دعوة كريمة للنفس نحو الاعتراف بالذنب والتقصير، واللجوء الكامل إلى فضل الله، وطلب العفو والرحمة منه وحده.

نتوب .. لأن التوبة واجبة، تضافرت بذلك نصوص القرآن والسنة، واتفقت الأمة على أن التوبة فرض على المؤمنين[١]، قد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة[٢].

---

١ تفسير القرطبي (٥/ ٩٠)، وفتح القدير للشوكاني (١/ ٥٠٥).

٢ تفسير الخازن (٤/ ٣١٦).

نتوب .. لأن هناك ما يدفعنا نحو التوبة، وهو ما بيّنه الله من جميل فضائلها، وحلاوة ثمارها، فقال سبحانه: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢]. غفار لمن تاب من السيئات، وآمن بالله عظيم الصفات، وأقلع فندم على ما مضى من الزلات والخطيئات، وسارع إلى مرضاة ربه بالأعمال الصالحات، ثم اهتدى وداوم على الإنابة حتى الممات. ولهذا كان لزاما علينا جميعًا أن ندعو أنفسنا إلى التوبة والرجوع إلى الله، وأن نسعى جاهدين في إنقاذ أنفسنا وانتشالها من الزلة والعثرة.

نتوب .. لأن الله هو الذي فتح أبواب التوبة، ويسر أسبابها، ورتب على التوبة الرحمة والغفران، والفوز بالجنان، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى**»، **قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ**: «**مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى**»(١).ولماذا يأبى؟! إنه الاغترار بالعاجلة، وبما فيها من الملذات والشهوات، فالدنيا حلوة خضرة، لكنها سرعان ما تنقضي وتزول.

نتوب .. لأن التعبد لله بالتوبة من أشرف التعبدات، فهي تجمع الخضوع، والذل، والانكسار بين يدي الله جل وعلا، إضافة إلى تحقيق الحب والرجاء، وهذه هي العبودية التي تحقق لصاحبها شرف الانتساب إلى ركب المؤمنين من عباد الرحمن أهل التوحيد والإيمان.

يا رب بك أستجير ومن يجير سواك؟ فارحم ضعيفًا يحتمي بحماك

يا رب قد أذنبت فاقبل توبتي من يغفر الذنب العظيم سواك؟

***

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٠) .

ما هي التوبة؟

إن التوبة هي الاعتراف بالذنب، كما عرّفها النبي ﷺ حين قال لعائشة رضي الله عنها في حادثة الإفك: "**فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً، فَسَيُبَرِّئُكِ اللَّهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ، فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ العَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ ثُمَّ تَابَ، تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ**"(١).

وقد تكرر هذا المعنى في القرآن الكريم، وجاء على لسان المرسلين، فهذا آدم عليه السلام يقول لربه معترفًا بذنبه: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وكذلك جاء عن موسى عليه السلام حين قتل القبطي ولم يكن يقصد، فما كان منه إلا أن استرجع وندم على فعلته، واعترف بظلمه لنفسه أن حمّلها الوزر، فتوجه إلى ربه بقلب مرهف، وضمير يقظ، طالبًا مغفرته وعفوه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القَصَص: ١٦].

فاستجاب الله إلى ضراعته، ورجوعه إلى حماه واستغفاره: ﴿فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القَصَص: ١٦].

وكذلك يونس عليه السلام حيث أقبل موحِّدا، ومنزها ربه، ومعترفا بذنبه: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

---

(١) أخرجه البخاري (٤١٤١)، ومسلم (٢٧٧٠).

وكان من دعاء الحبيب ﷺ الذي علّمه لأبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: **"قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ"**[1] .

وهذه النصوص وغيرها تؤكد: أهمية الاعتراف بالذنب الذي هو حقيقة التوبة، وأنه سبب أكيد لحصول الرحمة؛ والمغفرة من الله؛ فإن المعترف بالذنب يدرك خطأه، ويعرف زلته، ويندم على فعلته؛ لذلك يطلب العون من ربه والمغفرة لذنبه.

إنه يتوب ويتوب، ويشعر بالضعف، فيستعين بربه، ويطلب رحمته؛ لأنه يعلم علم يقين بأنه لا حول له ولا قوة إلا بعون الله ورحمته وإلا كان من الخاسرين؟!.

قال العز بن عبدالسلام رحمه الله: "الاعتراف بالذنوب استكانة لعلام الغيوب، موجبة لعطفه ولطفه، بغفر الذنوب، وستر العيوب".

إن التوبة هي ترك الذنب على أجملِ وأبلغ وجوه الاعتذار، وهي من كمال الإيمان، وحسن الإسلام، ترقى بالعبد إلى مقامات المتقين، وتحول بينه وبين سبل الشيطان.

إن التوبة تعني الرجوع إلى الله بحل عقدة الإصرار عن القلب، والقيام بحقوق الرب، وتدارك ما أمكن.

إن التوبة تعني الرجوع عمّا يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا إلى ما يحبه الله ظاهرًا وباطنًا، والرجوع عن معصية الله إلى طاعته.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النُّور: ٣١]. أي: عودوا إلى طاعته، وأنيبوا إليه، فالمؤمن يدعوه إيمانه إلى التوبة التي هي سبيل الفلاح.

---

(١) أخرجه البخاري (٨٣٤).

قال ابن القيم رحمه الله: "التوبة هي رجوع العبد إلى الله ومفارقته لصراط المغضوب عليهم والضالين"[١].

وقال الجرجاني رحمه الله: "والتوبة في الشرع، الرجوع عن الأفعال المذمومة إلى الممدوحة"[٢].

وفي التوبة إقلاع عن السيئات، وندم على المعاصي، قال ﷺ: «**النَّدَمُ تَوْبَةٌ**»[(٣)]، حيث إن الندم يقود المرء إلى تذكر الذنب دائمًا، ومن ثم يتحقق له الخوف من الله، فيكون ذلك بابًا للعبد إلى مرضاة ربه ورحمته.

يقول الحسن البصري رحمه الله: "إِنَّ الرَّجُلَ يُذْنِبُ الذَّنْبَ فَمَا يَنْسَاهُ وَمَا يَزَالُ مُتَخَوِّفًا مِنْهُ حَتَّى يَدْخُلَ الْجَنَّةَ"[(٤)].

والمقصود هو الندم على معصية الله مع العزم الأكيد على عدم العودة إلى الخطايا والآثام.

يا عين فلتبكي ولتذرفي الدمعا ذنبًا أحاط القلب أصغي له سمعًا
أين الدموع على الخدين قد سالت فالنفس للعصيان يا ربي قد مالت

وكتب الحسن البصري رحمه الله إلى عمر بن عبدالعزيز رحمه الله: "اعلم أن التفكر يدعو إلى الخير والعمل به، والندم على الشر يدعو إلى تركه"[٥].

---

١ مدارج السالكين (١/ ١٩٧).

٢ التعريفات (ص: ٧٠).

(٣) أخرجه أحمد (٣٥٦٨)، وابن ماجه (٤٢٥٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٨٠٢) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤)أخرجه أحمد في الزهد (١٥٨١) .

٥ إحياء علوم الدين (٤/ ٤٢٥).

والتوبة واجبة على الفور من كل ذنب. فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بالعباد، فلابد أن يقلع العبد عن المعصية، وأن يندم على فعلها، وأن يعزم على ألا يعود إليها أبدًا، وإلا لم تصح توبته.

أما إذا كان الذنب يتعلق بالعباد.. فلا بد للتائب أن يرد المظالم إلى أهلها، ويبرأ منها.. هذا إذا لم يترتب على ذلك مفسدة أعظم.

وأعظم التوبة وأوجبها:

التوبة من الكفر إلى الإيمان، والتوبة من البدعة إلى السنة، ثم يليها التوبة من كبائر الذنوب، ثم يلي ذلك التوبة من صغائر الذنوب.. ثم التوبة من التقصير في جنب الله وأوامره، والتوبة من الغفلة ومن تأخير التوبة والتسويف بها.

كما أن المسلم الجاد والمؤمن القوي الحريص على بركة عمره يعد إهدار الوقت في المباحات والمبالغة فيها معصية يجب التوبة منها:

يا ثقتي يا أملي   أنت الرجا أنت الولي
اختم بخير عملي   وحقق التوبة لي
قبل حلول أجلي   وكن لي يا رب ولي

***

التوبة شعار الصالحين

إن دأب الصالحين والأولياء والمقربين من عباد الله أنَّ قلوبهم يقظة وجلة بتوفيق الله، قد شعشع الإيمان في صدورهم، فدومًا يستشعرون الخوف من الله ويستحضرون خشيته ومراقبته، وأنهم إلى ربهم صائرون وإليه سوف يحشرون، قد استحضرت قلوبهم ذكر الله وأمور الآخرة، واستجابوا لأمر ربهم تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[البَقَرَة: ٢٠٣].

فدومًا ترى المؤمنين من عباد الرحمن يلومون أنفسهم ويحاسبونها، ثم يرجعون إلى ربهم بقلوب منكسرة خاشعة، قد امتلئت رهبة وخشية.

قال الله عز وجل: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ *مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَانَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٣٢-٣٣]. أي: رجاع إلى الله في جميع الأوقات، بذكره والاستعانة به، وحبه وخوفه ورجائه.

إنه قلب أناب إلى الله وأقبل على كتابه فزاده الله هداية ونورا وعلما وبصيرة، ويسّر الله له الوصول إليه، فإن الله هو الموفق للإيمان والتوبة:﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾[الرّعد: ٢٧].

والإنابة والأوبة صفة الأنبياء والمرسلين، كحال نبي الله أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال سبحانه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[ص: ٤٤]. والإنابة تعني الرجوع إلى الله وانصراف دواعي القلب إليه، وتتضمن محبة الله وخشيته، والخضوع له والإعراض عمّا سواه.

وقد امتدح الله خليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾[هُود: ٧٥]. أي: سريع الفيئة إلى الله وإلى مرضاته، رجَّاع إلى الحق والفضيلة حيثما كان وفي كل حين، ومتضرع إلى الله في جميع الأوقات.

ولك أن تتخيل إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى وهو يؤدي طاعة ربه، فإنه أيضًا يتوب إلى الله مخافة التقصير؛ لعلمه بأن الله هو التواب الرحيم، قال تعالى:

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[البَقَرَة: ١٢٨].

وهذا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ تشرَّفت نفسه، واشتاقت إلى رؤية الله، وهو الأمر الذي لا يكون، ولا يطيقه بشر في هذه الأرض، حتى الجبل الأصم الغليظ لم يثبت، وانهال كالرمل مدكوكًا قد ساخت قمَّة ذلك الجبل رهبة من الله، حينها خرَّ موسى صَعِقا، فلمّا أفاق ماكان منه إلا أن: استغفر، وثاب إلى نفسه منزهًا ومعظمًا لربه عما لا يليق، ولما صدر منه، من السؤال الذي دافعه الحب والمودة لربه، معلنًا التوبة، وأنه في طليعة المؤمنين بتعظيم ربهم وإجلاله، تجلَّى ذلك في قوله جل في علاه: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الأعراف: ١٤٣].

نعم هذا هو طريق المتقين، وزاد المؤمنين المخلصين، فإنهم يلازمون التوبة في كل حين، وعلى أي حال حتى أصبحت لهم شعارًا ودثارًا.

إنه أدب جميل، وخوف عظيم، يوم يطلب المتقون التوبة من ربهم حتى وهم متلبسون بالطاعة، منفذون لأوامره.

وهو دليل خشية الله وتعظيمه، وطهارة القلب من العُجب، والخوف من التقصير الذي يُعد عند هؤلاء من الذنوب التي تحطّ بالنفس وتبعدها عن الله، فليست التوبة محصورة في العصاة، بل حتى المؤمنين، والتائب لابد له من تجديد الإيمان، والتوبة في كل وقت وحال، وفي جميع مراحل العمر.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "هي مقام يستصحبه العبد من أول ما يدخل إلى آخر عمره ولا بد منه لجميع الخلق، فجميع الخلق عليهم أن يتوبوا وأن يستديموا التوبة"[١].

---

١ مجموع الفتاوى (١١/ ٦٨٨).

إنها النفوس العظيمة .. فعند التقصير تتوب، وإذا خشيت التقصير أيضًا سألت الله التوبة والغفران.

قال ابن القيم رحمه الله: "التوبة من أفضل مقامات السالكين؛ لأنها أول المنازل، وأوسطها وآخرها، فلا يفارقها العبد أبدًا، ولا يزال فيها إلى الممات"[١].

يعيش العبد مع التقوى، وإذا ألمت به وساوس الشيطان، تذكر فعاد إلى الرحمن، يتذكر عقاب الله وجزاءه، ووعده ووعيده، فيتوب وينيب، ويستعيذ بالله، ويرجع إليه من قريب: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

قال مجاهد رحمه الله: "هو الرجل يهمّ بالذنب فيذكر الله فيدعه"[٢].

وقال مقاتل رحمه الله: "إن المتقي إذا أصابه نزغ من الشيطان تذكر، وعرف أنه معصية، فأبصر فنزع عن مخالفة الله"[٣].

وإن كانت الوقاية والسلامة من الذنوب والآثام خير من طلب التوبة؛ لأن العبد ربما لا يوفق للتوبة، أو ربما لا تقبل منه، كما أن السلامة من الذنب أيسر من التوبة والندامة.

قال الحسن البصري رحمه الله: «يَا ابْنَ آدَمَ، تَرْكُ الْخَطِيئَةِ أَيْسَرُ مِنْ طَلَبِ التَّوْبَةِ»[٤].

***

---

١ نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (٤/ ١٢٩٤).

٢ مجموع الفتاوى (٧/ ٣٢).

٣ تفسير البغوي – طيبة (٣/ ٣١٨).

٤ أخرجه أحمد في الزهد (١٥٩٧).

﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾

إن الله هو التواب الرحيم؛ لكثرة قبوله توبة العباد حالًا بعد حال، وإن تكررت الذنوب، فهو التواب الذي ييسر لعباده وسائل التوبة، ثم يتوب عليهم.

وهو الرحيم الذي يرحم عباده مهما أساءوا، فيقبل توبتهم، ويبدل سيئاتهم حسنات قال تبارك وتعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البَقَرَة: ٣٧].

وهذا مما يزيد العبد المؤمن رغبةً ورجاءً، حين يعلم بأن التواب وصف لازم للرب سبحانه، فلا ييأس من رحمته أحد: ﴿إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يُوسُف: ٨٧].

قال ابن القيم رحمه الله[١]:

وكذلك التوَّابُ من أوصافه ... والتَّوبُ في أوصافه نوعان

إذنٌ بتوبةِ عبدِه وقبولُها ... بعد المتاب بمنَّةِ المنان

إن الله هو العفو الغفور، الرحيم الغفار، الذي لم يزل ولا يزال بالعفو معروفًا، وبالغفران والصفح عن عباده موصوفًا، فكل واحد من عباده مضطر إلى عفوه ومغفرته، كما أن الكل مفتقر ومضطر إلى كرمه ورحمته.

قال سبحانه: ﴿أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النُّور: ٢٢].

١ الكافية الشافية (ص: ٢٠٩).

هو الغفور سبحانه الذي يستر العبد، ويغفر الذنب، يفعل ذلك مرة بعد مرة إلى ما لا يحصى.

هو السِتّير الذي يحب الستر لعباده، ويستر ذنوبهم،بل وأمرهم أن يستروا عوراتهم، وألَّأ يجاهروا بمعاصيهم في الدنيا؛ ليسترها عليهم في الدنيا الآخرة.

يقول ابن القيم رحمه الله[١] :

وهو الحيِيُّ فليس يفضحُ عبدَه ... عند التجاهرِ منه والعصيانِ

لكنَّه يُلقي عليه سِتْرَه ... فهو السَّتِيرُ وصاحبُ الغفرانِ

وهذا جدير بأن يدفع المسلم إلى الإسراع بالتوبة، ثم الاستبشار بأن الله يقبل التوبة، ويعفو عن السيئات، ويمحو أثرها. قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[الشّورى: ٢٥].

والله يفرح بتوبة العبد، وهذا من رحمته بعباده، وعظيم لطفه بهم، فضلًا عن قبول التوبة والأمر بها، وقد جاء ما يؤكد ذلك في سنة الهدى والرحمة؛ ليكون دليلًا شاهدًا على أن هذا الدين – بحمد الله – كله خير وفضل ورحمة للعباد، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[الأنبياء: ١٠٧].

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **"لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا، قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ"**[٢] .

---

١ الكافية الشافية (ص: ٢٠٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٤٧).

إنه رجل بأرض فلاة ومعه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فَضَلَّت عنه، فذهب يطلبها فلم يجدها، فبقي ليس حوله أحد، لا ماء، ولا طعام، ولا أناس، فلما أيس من راحته وحياته؛ ذهب إلى شجرة ونام تحتها ينتظر الموت، فبينما هو كذلك إذ بناقته عنده قد تعلق خطامها بالشجرة التي هو نائم تحتها، فبأي شيء يُقَدَّرُ هذا الفرح؟! إنه فرح عظيم لا يتصوّره إلا من وقع في مثل حاله، إنه فرح بالحياة بعد الممات؛ لذا أخذ بخطام ناقته وأراد أن يثني على الله فيقول: "اللهم أنت ربي وأنا عبدك"؛ لكنه من شدة الفرح قلب القضيَّة فقال: "اللهم أنت عبدي وأنا ربك"

وفي هذا دليل على أن الله عز وجل يحب ويفرح بتوبة عبده إذا تاب إليه فرحًا عظيما يليق بجلاله وعظمته ولا يشبهه فرح المخلوقين، ليس لحاجته إلى أعمالنا وتوباتنا، فإن الله غني عنا وعن طاعاتنا وتوباتنا؛ ولكن لعظيم كرمه؛ فالعفو والمغفرة أحب إليه من أن ينتقم ويؤاخذ.

وهذا الفرح من الله بتوبة عبده لم يأت نظيره في غيرها من الطاعات، وهذا دليلٌ على عظم قدر التوبة، وفضلها عند الله. ولولا أن التوبة اسم جامع لشرائع الإسلام، وحقائق الإيمان، وأن أمرها عظيم، لم يكن الرب تبارك وتعالى ليفرح بتوبة عبده ذلك الفرح العظيم.فهو سبحانه يحب من عباده أن يتوبوا، ويريد التوبة منهم، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النِّسَاء: ٢٧].

قال ﷺ: «**لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لاَبْتَغَى ثَالِثًا، وَلاَ يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ**» (١).

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلت الرجا مني لعفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما

***

(١) أخرجه البخاري (٦٤٣٦)، ومسلم (١٠٤٩).عن ابن عباس رضي الله عنهما.

توبة صادقة لا جوفاء...!

والتوبة ليست كلمة تقال باللسان، إنما هي عزيمة في القلب، يتحقق مدلولها بالإيمان، والعمل الصالح، ويتجلى أثرها في السلوك العملي في عالم الواقع، أما أن يقول المرء: أستغفر الله وأتوب إليه؛ وهو مصرٌّ على المعصية، فهذه توبة جوفاء؛ يتحرك بها اللسان دون أن يكون لها أثر في الجنان.

أما إذا وقعت التوبة في القلب وصح الإيمان، وصدّقه العمل فهنا يسير العبد في طريق الرشاد والهدى والاهتداء؛ فإن التوبة كغيرها من العبادات والطاعات، لابد لها من الصدق مع الله، وتجريد الإخلاص لله سبحانه وتعالى، وهذه هي التوبة التي تُحدث ميلادًا جديدًا للنفس، ويقظة فاعلة للضمير.

فإن كثيرًا من الناس يترك الذنب خوفًا من البشر، أو لتغيّر حاله، أو لعدم القدرة على فعل المعصية أو لابتعاده عن أسبابها، أو لأجل الدنيا، أو شيء من أمرها، أو غير ذلك مما يكون عائقًا أمامه يمنعه من ارتكاب المحرّم، وظلم نفسه، فهذا لا يعدّ تائبًا حتى يتركها لله رب العالمين، استجابة لأمره، وطمعًا في ثوابه، وخوفًا من عقابه.

لابد من توبة لله، ومن أجل الله: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النُّور: ٣١]، لذا كان الجزاء هو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب والسلامة من جميع الشرور، والتنعم في دار الحبور والسرور.

فباعث التوبة وترك الإصرار في هذه الحال، هو معرفة الله ومعرفة أسمائه وصفاته، بأن يعيش العبد بقلبه وفكره متأملا في أسماء الله وصفاته، وفي كتابه العزيز، متدبرا لما في ذلك من الحكم والمعاني والأسرار.

فعندما يتأمل في أسماء الله: الرحمن، الرحيم، التواب، الكريم، العفو، الغفور، الودود والحميد، فإن قلب العبد يمتلىء طمأنينة ورجاء ورغبة في التوبة.

يقول القرطبي رحمه الله: "الباعث على التوبة، وحل الإصرار؛ إدامة الفكر في كتاب الله العزيز الغفار، وما ذكره الله سبحانه من تفاصيل الجنة ووعد بها المطيعين، وما وصفه من عذاب النار وتهدد به العاصين، وداوم على ذلك حتى قوي خوفه ورجاؤه، فدعا الله رغبا ورهبا، والرغبة والرهبة ثمرة الخوف والرجاء، يخاف العذاب، ويرجو الثواب"[١]. ومّما يبعث على التوبة تعظيم حرمات الله، وأن نعلم بأن الله يغار، قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَغَارُ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَغَارُ، وَغَيْرَةُ اللهِ أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِ**»(٢).

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [الحَجّ: ٣٠].من يجتنب معاصيه ومحارمه ويكون ارتكابها عظيما في نفسه، فله على ذلك خير كثير وثواب جزيل، فكما على فعل الطاعات ثواب جزيل وأجر كبير، وكذلك على ترك المحرمات واجتناب المحظورات[٣].

قال بشر بن الحارث (الحافي) رحمه الله: "لو تفكر الناس في عظمة الله ما عصوا الله عز وجل"؛ فعلى العبد أن يحذر الذنوب وسوء عواقبها في نفسه، فالاغترار أو الفرح بالذنب أو قلة الحياء من الله أعظم من الذنب نفسه، يقول ابن عباس رضي الله عنهما: قلة حيائك ممن على اليمين وعلى الشمال، وأنت على الذنب أعظم من الذنب، وضحكك وأنت لا تدري ما الله صانع بك أعظم من الذنب، وفرحك بالذنب إذا ظفرت به أعظم من الذنب، وحزنك على الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب، وخوفك من الريح إذا حركت ستر بابك وأنت على الذنب ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك أعظم من الذنب إذا عملته".

***

---

١ تفسير القرطبي (٤/ ٢١١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٢٣)، ومسلم (٢٧٦١).عن أبي هريرة رضي الله عنه

٣ تفسير ابن كثير ت سلامة (٥/ ٤١٩).

زمن التوبة

ولا بد أن تكون التوبة في وقت تقبل فيه التوبة، فإن لم تكن كذلك فلا توبة للإنسان، فعند حضور الأجل تنقطع توبة العبد ولا تقبل منه فعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: "**إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ**"(١)، أي: إذا لم تبلغ الروح الحلقوم، قال تعالى: ﴿فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ *وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ *وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لاَ تُبْصِرُونَ﴾[الواقِعَة: ٨٣-٨٥].

قال الشيخ حافظ الحكمي رحمه الله:

وَتُقْبَلُ التَّوْبَةُ قَبْلَ الْغَرْغَرَهْ كَمَا أَتَى فِي الشِّرْعَةِ الْمُطَهَّرَهْ ٢

أي حال الاحتضار عند حشرجة الروح في الصدر إيذانا بالفراق كما قال سبحانه وتعالى: ﴿كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ *وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ *وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ *وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ *إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾[القِيَامَة: ٢٦-٣٠].فمن تاب عند الموت حين ينكشف الغطاء، ويعاين الملائكة، وأمور الآخرة وصار الغيب شهادة، لم ينفعه حينها الإيمان ولا التوبة.

قال ابن عمر رضي الله عنهما: "التوبة مبسوطة ما لم ينزل ملك الموت".

بادر إلى التَّوبة الخَلْصَاءِ مُبتدئًا والموتُ ويْحكَ لم يَمدُدْ إليك يدًا

فوقت التوبة ينقطع حين تطلع الشمس من مغربها، فحينئذٍ يؤمن الناس أجمعون، ولا ينفعهم ذلك عند الله، ولا يغني عنهم شيئًا.

(١) أخرجه أحمد (٦١٦٠) والترمذي (٣٥٣٧)، وقال: حسن غريب، وحسَّنه الألباني في جامع الصغير (١٩٠٣).

٢ معارج القبول بشرح سلم الوصول (٣/ ١٠٤٠).

قال رسول الله ﷺ: «**لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَآهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ، وَذَلِكَ حِينَ لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا**» ثم قرأ قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾[الأنعام: ١٥٨] (١).

إن التوبة التي يقبلها الله هي التي تصدر من النفس التي حرَّكها الندم من الأعماق حتى استفاقت فثابت وأنابت وهي في فسحة من العمر، وبحبوحة من الأمل؛ رغبة في التطهر وسلوك طريق جديد، هنا تكون التوبة لا تأجيل فيها ولا تسويف، وذلك بالمبادرة في زمن المهلة، والمجاهدة في طريق الشهوة، والاستعلاء في عالم المادة واللذة.

أُسوِّف توبتي خمسين عامًا   وظَنِّي أنَّ مثلي لا يتوب

قال أبو بكر الواسطي رحمه الله: "التأني في كل شيء حسن إلا في ثلاث خصال: عند وقت الصلاة، وعند دفن الميت، والتوبة عند المعصية".

وإن كان الدين الإسلامي قد ذم الاستعجال، وجعل العجلة مذمومة في غالب الأمور، إلا أن الاستعجال والمبادرة إلى التوبة أمر محمود، ومأمور به.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[النِّسَاء: ١٧].

أي: يتوبون من قريب قبل أن يتبين لهم الموت ويدخلوا في سكراته، ويحسوا أنهم على عتباته، فيتوبون توبة ندم وانخلاع عن الخطيئة، ونية على العمل الصالح.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٣٦)، ومسلم (١٥٧). عن أبي هريرة رضي الله عنه

وقد مَنَّ الله على عباده؛ بأن جعل بعد الذنب فسحة للتوبة، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «**إِنَّ صَاحِبَ الشِّمَالِ لِيَرْفَعُ الْقَلَمَ سِتَّ سَاعَاتٍ عَنِ الْعَبْدِ الْمُسْلِمِ الْمُخْطِئِ أَوِ الْمُسِيءِ، فَإِنْ نَدِمَ وَاسْتَغْفَرَ اللهَ مِنْهَا أَلْقَاهَا، وَإِلَّا كُتِبَتْ وَاحِدَةً**» (١) .

الإساءات منا كثيرة لكن عفو الله جزيل.. والزلل والخطأ منا عظيم لكن مغفرة الله ورحمته أعظم.. فهو الكريم الجواد.. الرحيم بالعباد.

***

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٧٧٦٥)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ١٢٤)، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (١٢٠٩).

التوبة النصوح

وأكمل التوبة وأعظمها هي التوبة النصوح التي أمر الله بها في قوله تعالى:

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التّحْريم: ٨].

والتوبة النصوح من النصح، حيث تنصح القلب، وتخلّصه ثم لا تغشه ولا تخدعه، وهي تنزيه القلب عن الذنوب.

فالتوبة النصوح تجمع الندم بالقلب، والاستغفار باللسان، وإضمار عدم العودة إلى الآثام، وتجنب خلطاء السوء.

قال الحسن البصري رحمه الله: "التوبة النصوح أن يبغض الذنب الذي أحبه ويستغفر منه إذا ذكره".

وقال أيضًا: "أن يكون العبد نادمًا على ما مضى مجمعًا على أن لا يعود فيه".

وقال سعيد بن المسيب رحمه الله: "التوبة النصوح ما تنصحون به أنفسكم".

وهي توبة صادقة روحها الإخلاص والخوف من الله، وتبدأ بالندم على ما كان، وتنتهي بالعمل الصالح والطاعة، حينها يتخلص القلب من رواسب المعاصي، وأدران الذنوب والخطايا.

قال القرطبي رحمه الله: "التوبة النصوح هي التي لا عودة بعدها كما لا يعود اللبن إلى الضرع".

وهذه التوبة هي التي تورث صاحبها الفلاح عاجلًا وآجلًا.

ويقول العلامة السعدي رحمه الله: "والمراد بها: التوبة العامة الشاملة للذنوب كلها، التي عقدها العبد لله، لا يريد بها إلا وجه الله والقرب منه، ويستمر عليها في جميع أحواله"[١].

وعلامة التوبة النصوح:

أن يكره العبد المعصية، ويستقبحها فلا تخطر له على بال، ولا ترد في خاطره أصلًا، ولا يبقى على عمله أثر من المعصية سرًا أو جهرًا، ثم الاقبال على الطاعة، والنفور من العصيان والمحرمات.

والتوبة النصوح تجبّ ما قبلها، وتنقل صاحبها بعون الله إلى الهدى.

***

---

١ تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٧٤)،

العبد التوَّاب!

إن العبد التواب هو ذلك العبد الموفق الكثير التوبة، الذي إذا أذنب تاب إلى الله، وأتبع ذلك طاعات، وقربات، ونوافل يتقرب بها إلى ربه، لاسيما بعد معرفة الذنب، والاعتراف به، وطلب التخلص من سوء عواقبه.

وإليك أيها المبارك هذه القصة التي حدثت في عهد النبي ﷺ ..

فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "**جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي عَالَجْتُ امْرَأَةً فِي أَقْصَى الْمَدِينَةِ، وَإِنِّي أَصَبْتُ مِنْهَا مَا دُونَ أَنْ أَمَسَّهَا، فَأَنَا هَذَا، فَاقْضِ فِيَّ مَا شِئْتَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: لَقَدْ سَتَرَكَ اللهُ، لَوْ سَتَرْتَ نَفْسَكَ، قَالَ: فَلَمْ يَرُدَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا، فَقَامَ الرَّجُلُ فَانْطَلَقَ، فَأَتْبَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا دَعَاهُ، وَتَلَا عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةَ:** ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤] **فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: يَا نَبِيَّ اللهِ هَذَا لَهُ خَاصَّةً؟ قَالَ: «بَلْ لِلنَّاسِ كَافَّةً»**[١].

فما زلت ذا عفوٍ عن الذنبِ لم تزلْ ... تجود وتعفو منةً وتكرما

فلولاك لم ينجُ منْ إبليس عابد ... وكيف وقد أغوى صفيَّك آدما

وأكثر الناس لا يعرفون قدر التوبة ولا حقيقتها، فضلًا عن القيام بها علمًا وعملًا وحالًا، ولم يجعل الله تعالى محبته للتوابين إلا وهم خواص الخلق لديه.ومتى ما حصل للعبدِ علمٌ بعاقبةِ المعصية وأثر الذنب، وكان في جوانحه الخوف والرجاء، وكان خوفه خوفًا من الله وعذابه ممزوجًا برجاء عفوه وكرمه، كان المجال رحبًا أمامه لتزكية نفسه، والارتقاء بها، بعد محاسبتها، وتأنيبها، ومجاهدتها، نحو توبة صادقة.

(١) أخرجه مسلم (٢٧٦٣).

إن التوبة طاعة من أعظم الطاعات، وقربة من أجل القربات، وهي حقيقة دين الإسلام، والدين كله داخل في مسمى التوبة، وبهذا استحق التائب أن يكون حبيب الله، قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٢]، ومن أحبه الله لا شك أنه سوف يسعد في دينه ودنياه كما أنه موعود في آخرته بما هو أكمل وأتم من ذلك؛ بسعادة لا شقاء بعدها.

فعن عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ، فُتِحَتْ لَهُ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابِ الجَنَّةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ**.[(١)]

وسر هذا التلازم بين التوبة والوضوء؛ هو أن في الوضوء طهارة حسية للبدن، وغالبًا ما يكون ذلك دليلًا على الرغبة في الطهارة المعنوية التي هي طهارة القلب، واللسان، والجوارح من الآثام، فكيف إذا اجتمع مع الوضوء قرب واتصال بالله متمثل في الصلاة، ذلكم النهر الغمر الذي يذهب بأدران الذنوب والخطايا، فلا يُبقي منها شيء، فإن هذا أبلغ في المغفرة ومحو السيئات كما جاء عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا ثُمَّ يَتَوَضَّأُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِذَلِكَ الذَّنْبِ، إِلَّا غَفَرَ لَهُ**»[(٢)].

إنها في هذه الحال تثمر الفرحة التي يجدها العبد في نفسه، والحلاوة التي تغمر روحه وقلبه؛ لذا كانت ضرورة في كل وقت وآن، وفي كل زمان ومكان، ولا يستغني عنها العبد بأي حال من الأحوال.

---

(١) أخرجه الترمذي ت بشار (٥٥)، وقال: هذا حديث في إسناده اضطراب، ولا يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الباب كبير شيء.

(٢) أخرجه أحمد (٤٧) وأبو داود (١٥٢١) صححه الألباني في الترغيب (١٦٢١).

والعبد الموفق الحصيف يستشعر أهمية التوبة والتخلّص من ذنبه في كل أحواله وأوقاته، بل وفي جميع عباداته وقرباته، بل حتى في وضوئه وفي صلاته، وسائر الأعمال الصالحات؛ فإنها من أعظم المكفرات للأوزار.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: **يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمْهُ عَلَيَّ، قَالَ: وَلَمْ يَسْأَلْهُ عَنْهُ، قَالَ: وَحَضَرَتِ الصَّلاَةُ، فَصَلَّى مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا قَضَى النَّبِيُّ ﷺ الصَّلاَةَ، قَامَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَصَبْتُ حَدًّا، فَأَقِمْ فِيَّ كِتَابَ اللَّهِ، قَالَ: «أَلَيْسَ قَدْ صَلَّيْتَ مَعَنَا» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: " فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ ذَنْبَكَ، أَوْ قَالَ: حَدَّكَ"**[1].

***

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٢٣)، ومسلم (٢٧٦٣).

آثار الذنوب والمعاصي

ومما يعين على التوبة، ويرغِّب النفس في سلوك الهدى أن يعلم العبد أن للذنوب والمعاصي أضرارًا جسيمة؛ في النفس، وفي الآفاق، بل وفي الأفراد والمجتمعات.

فإن عقوبات السيئات تتنوع إلى: عقوبات شرعية. وعقوبات قدرية. وهي إما في القلب، وإما في البدن، وإما فيهما. وعقوباب في دار البرزخ بعد الموت. وعقوباب يوم حشر الأجساد. فالذنب لا يخلو من عقوبة البتة، ولكن لجهل العبد لا يشعر بما هو فيه من العقوبة؛ لأنه بمنزلة السكران والمخدر والنائم الذي لا يشعر بالألم، فإذا استيقظ وصحا أحس بالمؤلم. فترتب العقوبات على الذنوب كترتب الإحراق على النار، والكسر على الانكسار، والإغراق على الماء، وفساد البدن على السموم، والأمراض على الأسباب الجالبة لها"[1].

من يهن يسهل الهوان عليه ... ما لجرح بميت إيلام

وإليك بعض تلك الأضرار والآثار السيئة على العباد والبلاد:

(١) حرمان العلم:

فإن العلم نور يقذفه الله في قلب العبد، والمعصية تطفئ ذلك النور، وإن الذنوب تعمي بصيرة القلب، وتطمس نوره، وتسد طرق العلم، وتحجب موارد الهداية، قال علي بن خشرم رحمه الله: "سألت وكيعًا عن دواء الحفظ فأجاب: ترك المعاصي" . ولما رأى الإمام مالك رحمه الله من تلميذه الشافعي رحمه الله ما رأى أعجب بفطنته وذكائه وفهمه وقال له: "إني أرى أن الله قد ألقى على قلبك نورا فلا تطفئه بظلمة المعصية".

---

١ ابن القيم/الداء والدواء ط المجمع (١/ ٢٧١).

وقال الضحاك رحمه الله: "ما نعلم أحدًا حفظ القرآن ثم نسيه إلا بذنب، ثم قرأ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشّورى: ٣٠].

(٢) وحشة في القلب:

تكون بين العبد وربه، ثم يمتد أثرها لتكون بينه وبين عباد الله، وتقوى هذه الوحشة حتى مع أهله وأقاربه، فتراه لا ينتفع بمجالس الخير والصلاح بل يؤثر مجالس السوء والشيطان عليها. وهذه الوحشة التي يجدها العاصي في قلبه لا توازنها لذة مهما اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها، قال بعض السلف رحمه الله: "إني لأعصي الله فأرى ذلك في خُلُقِ دابتي وامرأتي".

وحشة تجعل للحياة مرارة؛ لأن المعصية والغفلة توجب البعد من الله وكلما ازداد البعد قويت الوحشة. أما الطاعة فإنها توجب القرب من الله، وكلما اشتد القرب قوي الأنس، وقد قيل:

فإن كنت قد أوحشتك الذنوب فدعها إذا شئت واستأنس

(٣) قلة التوفيق وتعسر الأمور:

فلا يتوجه لأمر إلا يجده مغلقًا، أو متعسرًا عليه، وكما أن من اتقى الله جعل الله له من أمره يسرًا، فكذلك من عطل التقوى، وأسرف في المعاصي جعل الله له من أمره عسرًا؛ كيف لا وقد انقطعت عنه أسباب الخير واتصلت به أسباب الشر. فأي توفيق وفلاح، وأي رجاء ونجاح يرجو العبد ويأمل وقد قطع ما بينه وبين خالقه ومولاه؟!

(٤) وهن البدن:

فالمؤمن المطيع لربه قوته في قلبه، وكلما قوي قلبه قوي بدنه، أما الفاجر والعاصي وإن كان قوي البدن فهو أضعف شيء عند الحاجة فتخونه قوته أحوج ما يكون إلى نفسه.

(٥) حرمان الرزق:

فكما أن تقوى الله يجلب الرزق كما في قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾[الطّلاَق: ٢-٣]. وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعرَاف: ٩٦]. كذلك فإن ترك التقوى يجلب الفقر والفاقة، وأشد تركٍ للتقوى هو مقارفة المعاصي بترك واجب أو فعل محرم فما استُجْلِب رزقُ الله بمثل ترك المعاصي.

قال النبي ﷺ: "**إِنَّ الْعَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ**"(١).

(٦) محق بركة العمر:

فإن المعاصي تمحق بركة الدين والدنيا، وتمحق بركة العمر فالعبد إذا أعرض عن الله واشتغل بالمعاصي ضاعت عليه أيام حياته الحقيقية..

فإن عمر الإنسان هو حياته بالله، كما أن حقيقة الحياة هي حياة القلب، والتي لا تكون إلا بالبر والتقوى والطاعة، لذلك وصف الله الكافرين الذين هم أكثر الخلق إضاعة للحياة بأنهم أموات؛ فقال عنهم: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[النّحل: ٢١].

(٧) حرمان الطاعة:

فإن الطاعات بيد الله، ولا تحصل إلا بتوفيق الله وهدايته للعبد، فحين يختار العبد الحياة المظلمة المسودة بالذنوب، فإن ذلك يقطع عليه طريق الطاعة، فلا يوفق لها، بل تضعف عنده إرادة التوبة شيئًا فشيئًا حتى تنسلخ من قلبه، وتقوى إرادة المعصية لديه فيُحرَم الطاعة والعياذ بالله.

(١) أخرجه أحمد (٢٢٤١٣).

جاء رجل إلى الحسن البصري رحمه الله فسأله قائلًا: يا أبا سعيد، إني أبيت معافى، وأحب قيام الليل، وأعد طهوري، فما بالي لا أقوم؟، فقال: "ذنوبك قيدتك". قال النووي رحمه الله: "حرمت قيام الليل مرة بذنب أذنبته".

قال سليمان الداراني رحمه الله: "لا تفوت أحدًا صلاة الجماعة إلا بذنب" .

(٨) لباس الذل:

إن الرجل إذا أصاب الذنب و لو سرًا أصبح وعليه مذلته، ووجد عقوبة ذنبه عاجلًا أو آجلًا، فالعز في طاعة الله والذل في معصيته.

قال الحسن البصري رحمه الله: "أبى الله إلا أن يذل من عصاه".

وقال سليمان التيمي رحمه الله: "إن الرجل ليصيب الذنب في السر فيصبح وعليه مذلته".

(٩) هوان المذنب على الله:

قال الحسن البصري رحمه الله: "هانوا على الله فعصوه ولو عزُّوا عليه لعصمهم وإن هان العبد على ربه لم يكرمه أحد"، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾[الحَجّ: ١٨].

أما ما يُرى من تعظيم الناس لأهل المعصية، فهو في الظاهر فقط إما لمصلحة أو بسبب اتفاق في الأهواء والمشارب، أو بسبب خوف ونحوه.

(١٠) هوان المذنب على الناس :

فيحدث له سقوط الجاه والمنزلة والكرامة، وسقوط في أعين الناس وقلوبهم، فيصبح خامل الذكر ساقط القدر يرثى لحاله، ولا حرمة له أو شأن، بينما ترى العبد إذا كان من أهل الطاعة والتقوى كان من أكرم الخلق عند الله قال الكريم جل في علاه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[الحُجرَات: ١٣].

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: "إن العبد ليخلو بمعصية الله تعالى فيلقي الله بغضه في قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر".

(١١) لعنة البهائم للمذنب:

فلا يكفي المذنب عقاب ذنبه حتى يبوء بلعنة من لا ذنب له حتى البهائم والدَّواب تلعن عصاة بني آدم حيث مُنِعَت القطر من السماء بشؤم معصية العصاة، قال تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٩].

(١٢) انعدام الغيرة:

فكلما اشتدت مقارفة العبد للذنوب كلما انطفأت وخرجت من قلبه الغيرة على نفسه وأهله، فلا يستقبح القبيح بل يستحسن الفواحش ويزينها لغيره، ويدعو لها ويحث عليها، ولهذا كان الديوث أخبث خلق الله، فإن أصل الدين الغيرة ومن لا غيرة له لا دين له.

(١٣) زوال النعم:

فإن نعم الله تُحفظ وتُستَجلَبُ بطاعة الله، أما المعاصي فهي الآفات المانعة التي تحجب النعم، فإذا أراد الله حفظ النعمة لعبده ألهمه رعايتها بطاعته، وإذا أراد الله زوالها عنه خذله الله حتى ربما عصاه العبد بها، وقد قيل:

إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم

(١٤) الرعب والخوف في القلب:

فلا تراه إلا خائفًا مرعوبًا أحاطت به المخاوف من كل جانب؛ لأنه عصى الله دون خوف من الله أو عقابه، ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شئ.

(١٥) ذهاب الحياء:

فالذنوب تضعف حياء العبد، فلا يتأثر بعلم الناس بسوء حاله، ولا باطلاعهم عليه، وربما أخبر عن حاله، وقبح ما يفعل؛ لانسلاخه من الحياء، فلا يستحيي من الله ولا من عباده، فتجده يركب المعاصي، ويعلن بها ويجاهر دون خوف من الله أو حياء من الناس، ويفعل ما يهوى من القبائح وما يشاء.

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه؛ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "**إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ**"[١] .

فإن الإلمام بالمحاقر دون تورع، والوقوع في الصغائر دون اكتراث دليل على فقدان النفس لحيائها، ثم فقدانها لإيمانها.

ومتى ما فقد المرء الحياء تدرج من سيئ إلى أسوأ، ومن رذيل إلى أرذل ولا يزال يهوي حتى ينحدر إلى الدرك الأسفل، ويكون عرضة للهلاك والبوار.

(١٦) اعتياد الذنوب وتوالد السيئات:

فإن المذنب قد يألف المعصية ولا يستقبحها، بل تصير له عادة، وربما افتخر بفعله للذنب، وعدَّ هذا من تمام اللذة، وغاية التهتك، كما عند بعض العصاة والعياذ بالله، فالمعاصي تزرع أمثالها.

قال أحد السلف رحمه الله: "إن من عقوبة السيئة السيئة بعدها حتى إن العاصي قد لا يجد أحيانا لذة للمعصية لكنه يجد ألما وربما ضاقت عليه نفسه لمفارقة المعصية".

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٢٠).

(١٧) الطبع على القلب:

فإن الذنوب إذا تكاثرت طُبع على قلب المرء فكان من الغافلين؛ لأن القلب يصدأ من المعصية. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "**إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ، صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ، حَتَّى يَعْلُوَ قَلْبَهُ ذَاكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ**"[1] .

﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطفّفين: ١٤].

قال الحسن رحمه الله: "هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب"، حتى يصير الران طبعًا وقفلًا وختمًا، فيصير القلب في غشاوة وغلاف، فيتولاه الشيطان ويسوقه حيث أراد.

(١٨) أسر الشيطان:

ولا أسير أسوأ حالًا من أسير أسره الشيطان، الذي هو أعدى عدو للإنسان، فإن العبد بمعصيته لربه يصبح بعيدا عن الله وحينها لم يكن عليه من الله حافظ، فيقع في سجن الشيطان وأسره، حينها يفترسه الشيطان، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية.

(١٩) نزول النقم:

يقول ابن القيم رحمه الله:[2] "ومن تأثير المعاصي في الأرض: ما يحل بها من الخسف والزلازل، ويمحق بركتها، وكثير من هذه الآفات أحدثها الله سبحانه وتعالى بما أحدث العباد من الذنوب".

---

(١) أخرجه أحمد (٧٩٥٢) والترمذي (٣٣٣٤) وقال حسن صحيح، وحسَّنه الألباني في الترغيب (٢٤٦٩).

٢ الداء والدواء ط المجمع (١/ ١٦٠).

إن للذنوب شؤما وآثارا سيئة في الدنيا والآخرة؛ كمنع إجابة الدعاء، وضيق الصدر، وسوء الخاتمة، وعذاب الآخرة، إضافة إلى ما يُرى ويُشاهد من الفساد فى البر والبحر، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الرُّوم: ٤١].

"إن الذنوب والمعاصي تحدث في الأرض أنواعًا من الفساد في المياه والهواء والزروع والثمار والمساكن"، قال ﷺ: "**لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ، حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا، إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ، وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا**"[1].

ولايزال للطاعة ثمرات يانعة وطيبة، وآثار حسنة ومباركة ، يقابل ذلك آثار للمعصية هي في غاية الضنك والسوء، وربما كان الجزاء معجلًا في الدنيا قبل الآخرة كما هو معلوم ومشاهد، قال تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾[النِّسَاء: ١٢٣].

جاء في الأثر:

إن للحسنة لنورًا في القلب، وضياءً في الوجه، وقوةً في البدن، وسعةً في الرزق، ومحبةً في قلوب الخلق، وإن للسيئة لظلمةً في القلب، وسوادًا في الوجه، ووهنًا في البدن، وضيقا في الرزق، وبغضًا في قلوب الخلق.

***

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠١٩)، والبيهقي في الشعب (٣٠٤٢) وحسنه الألباني في الصحيحة (١٠٦).

التوبة تدفع البلاء

فإن الله قدَّر ما قدَّر من الحسنات والسيئات، وما ظهر من الفساد؛ ليرجع الناس إلى الحق، ويبادروا بالتوبة مما حرم الله عليهم، ويسارعوا إلى طاعة الله ورسوله.

قال تبارك وتعالى: ﴿أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[التّوبَة: ١٢٦]. ﴿يُفْتَنُونَ﴾ أي: يختبرون بالسراء والضراء، وما يصيبهم من البلايا والأمراض، وبالأوامر والنواهي؛ ليرجعوا إلى الله، لكن واقع الكثير هو الغفلة وترك الرجوع إلى الله ﴿ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ﴾ أي: من ذنوبهم السالفة. ﴿وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: فيما يستقبل من أحوالهم، ويعرفون ما ينفعهم فيفعلونه وما يضرهم فيتركونه.

إن الكفر والمعاصي هما سبب كل بلاء وشر في الدنيا والآخرة، كما هو الحال في الأمم السابقة أصابهم العذاب والنكال، بالطوفان، والريح العقيم، والصيحة، والغرق، والخسف، وغير ذلك كله بأسباب كفرهم وذنوبهم. ومن أمثلة ذلك ما جاء في قوله تبارك وتعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[العَنكبوت: ٤٠].

لهذا أمر الله العباد بالتوبة والضراعة والافتقار إليه عند وقوع الفتن، وأنواع البلايا والرزايا من الأمراض، والجراح، والقتال، والزلازل، والريح العاصفة، وغيرها.

قال سبحانه: ﴿فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأنعَام: ٤٣]. فبين جلَّ في علاه أن قسوة قلوبهم، وتزيين الشيطان لهم أعمالهم السيئة كل ذلك صدهم عن التوبة والضراعة والاستغفار، التي جعلها الله أسبابا لزوال المصائب والمصاعب.

وقد ثبت عن الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز رحمه الله؛ "أنه لما وقع الزلزال في زمانه كتب إلى عماله في البلدان، وأمرهم أن يأمروا المسلمين بالتوبة إلى الله والضراعة إليه، والاستغفار من ذنوبهم"[١]؛ وذلك من أجل تبديل الحال، وتغيير ما حلَّ بهم. كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[الرّعد: ١١].

فإن الله سبحانه بعدله وكرمه لا يسلب العبد نعمة وهبه إياها، أو يغير أحوال الناس إلا بعد أن يغير العباد أحوالهم، ونواياهم، وقلوبهم، وسلوكهم، وأوضاعهم، بل إن الله يزيد النعم لعبده، ويبقيها له متى ما عرف العبد ربه فأطاع وشكر، كما أنه سبحانه يسلبها منه، ويزيلها عنه، إن هو أنكر وبطر، وعصى وكفر.

***

١ مجموع فتاوى الشيخ ابن باز (٢/ ١٢٩).

الباب المفتوح

إن باب التوبة مفتوح، وعطاء الله ممنوح، وفضله تعالى يغدو ويروح.

ولكن.. أين التائب المستغفر؟ وأين صاحب القلب المنكسر؟

أين العائد المنيب؟ أين الراجي المقبل على الله؟

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لِلْجَنَّةِ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ؛ سَبْعَةٌ مُغْلَقَةٌ، وَبَابٌ مَفْتُوحٌ لِلتَّوْبَةِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ نَحْوِهِ**»[1].

فباب التوبة مفتوح لكل من استيقظ ضميره، وأراد العودة والأوبة، ولا يُصَد عن الباب قاصد، ولا يغلق في وجه لاجىء - أيًّا كان - ومهما ارتكب من الخطايا والآثام، حتى ولو كان الكفر والصد عن سبيل الله ومحاربة أوليائه.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البُرُوج: ١٠].

قال الحسن البصري رحمه الله: "انظروا إلى هذا الكرم والجود قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة"[2].

وفي مقام آخر يخاطب الله الكافرين بقوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ [الأنفَال: ٣٨].

فالطريق أمامهم مفتوح؛ ليتوبوا عن هذا كله ويرجعوا إلى الله، ولهم عندئذ أن يغفر لهم الله ما قد سلف، رغم كفرهم واجتماعهم لحرب الإسلام وأهله، وإنفاقهم الأموال للصد عن سبيل الله.

---

(١) أخرجه الحاكم (٧٦٧١)، والطبراني في الكبير (١٠٤٧٩)، وأبو يعلى الموصلي (٥٠١٢)، وضعف إسناده؛ حسين سليم أسد.

٢ تفسير ابن كثير ت سلامة (٦/ ٩٤).

فما على المنيب منا إلا أن يطرق باب الكريم سبحانه وتعالى، ويعمل صالحًا يدلِّل فيه على صدق توبته وإنابته.

يا من عدى ثم اعتدى ثم اقترف   ثم ارعوى ثم انتهى ثم اعترف

أبشر بقول الله في تنزيله   (إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ)

ربما لم يشهد التاريخ ولم تعرف الدنيا طاغيةً مثلَ فرعون في جبروته وبطشه، وعظيم إجرامه، لا يزال مضرب المثل في البطر والأشر والقبائح كلِّها، قد وضع بصماته السوداء على جبين التاريخ؛ ادعى الربوبية: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النَّازعَات: ٢٤]، وادعى الألوهية: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القَصَص: ٣٨]، وذبح الرجال واستحيا النساء، فجمع الظلم والظلمات بأسرها، ولبس لبوس الجاهلية بألوانها؛ ورغم عتوه وفجوره، وظلمه وطغيانه، وكفره وعناده؛ يدعوه الله إلى التوبة، وتزكية نفسه وتطهيرها؛ بسلوك طريق الهدى والرشاد، في ظل حياة كريمة، حياة العبودية لله - فإن الإسلام يجبُّ ما قبله، والتوبة تجبُّ ما قبلها - فأرسل الله له موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وقال له: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى *فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى *وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ [النَّازعَات: ١٧-١٩].

سبحانك ربنا ما أحلمك وما أرحمك! وما أعدلك وما أحكمك!

تفتح لعبادك باب التوبة والمغفرة، فلك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك، وعظيم سلطانك، ولك الحمد في الآخرة والأولى..

سبحانك أنت اللطيف الرؤوف بخلقك، أنت الكريم الجواد بعبادك، أنت الرحيم بالعباد مهما بلغت بهم الخطايا والزلات.

لكنَّ من أرجو لا يُغلق البابا   العفو يارباه فالقلب قد ثابا

***

الإصرار على الذنب

الإصرار هو نية عدم التوبة والتسويف بها، بأن يقول العبد غدًا أتوب! رغم علمه بأنه لا يملك البقاء ولا الحياة إلى الغد، والإصرار على الصغيرة يجعلها كبيرة.

قال العز بن عبدالسلام رحمه الله: "الإصرار على الذنوب يجعل صغيرها كبيرًا في الحكم والإثم فما الظن بالإصرار على كبيرها".

وقيل : "الإصرار هو أن ينوي ألا يتوب". كما أن المصرّ على الذنب تأنس نفسه المعاصي، وتزول منها هيبة الله، فتجرؤ على فعل الكبائر، أما المتقون فإنهم لا يصرّون على الذنوب، وهم يعلمون قبحها والنهي عنها، والوعيد عليها، ويعلمون أن لهم ربًا يغفر الذنوب.

قال سهل بن عبدالله رحمه الله: "الجاهل ميت، والناسي نائم، والعاصي سكران، والمصرُّ هالك".

وقال الجرجاني رحمه الله: "الإصرار: الإقامة على الذنب والعزم على فعل مثله"[1].

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال وهو على المنبر: "**وَيْلٌ لِلْمُصِرِّينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ**"[2].

وقال الإمام الغزالي رحمه الله: "اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب منها: الإصرار والمواظبة، ولذلك قيل: لا صغيرة مع إصرار، ولا كبيرة مع استغفار، فقطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه، فكذلك القليل من السيئات إذا دام عظم تأثيره في إظلام القلب".

---

١ التعريفات (ص: ٢٨).

(٢) أخرجه أحمد (٦٥٤١)، وعبد بن حميد (٣٢٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (٤٨٢).

وجاء عن بعض السلف: "ومن الإصرار: السرور بالصغيرة، والفرح والتبجح بها، فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة، وعظم أثرها في تسويد قلبه، حتى إن من المذنبين من يتمدح بذنبه، ويتبجح به لشدة فرحه بمقارفته إياه".

ومن الإصرار أن يتهاون المرء بستر الله عليه وحلمه، ولا يدري أن الله ربما يمهله مقتًا؛ ليزداد بالإمهال إثمًا : ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾[آل عِمرَان: ١٧٨].

وقال الأوزاعي رحمه الله: "الإصرار: أن يعمل الرجل الذنب فيحتقره".

فإياك والإصرار على المعاصي واستصغار الذنوب أو المجاهرة بها، ولا تنظر رعاك الله إلى صغر المعصية، بل انظر إلى عَظَمَةِ من عصيت، وانج بنفسك بوركت وهديت، ودع عنك تحقير الذنوب قولًا أو فعلًا، ولا تغتر بأهل زماننا ممن استصغروا الذنوب وتساهلوا فيها، بل ربما أعلنوا وجاهروا بها.

قال ﷺ: "**كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ**"(١).

ويقول العز بن عبدالسلام رحمه الله: "الذنوب أعظم العورات، وأقبح السوءات، والمجاهر بها مجاهر بأسمج العورات، وأشنع السوءات، وهو دليل القحّة، وقلة المبالاة".

وتأمل حال أسلافنا رحمهم الله ممن صحبوا رسول الله ﷺ؛ فهذا الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه، وأرضاه يدرك جيل التابعين ذلك الجيل القرآني المهتدي بهدي أصحاب رسول الله ﷺ ومع ذلك يحذرهم من احتقار الذنوب ويصور لهم حال الصحابة، وكيف كان خوفهم من الذنوب؟ قائلًا للتابعين: "إنكم لتعملون أعمالًا هي في أعينكم أدق من الشعر، إن كنا لنعدها في عهد رسول الله ﷺ من الموبقات"(٢).

(١) أخرجه البخاري (٦٠٦٩)، ومسلم (٢٩٩٠).

(٢)أخرجه البخاري (٦٤٩٢) .

قال الأوزاعي رحمه الله: "كان يقال من الكبائر: أن يعمل الرجل الذنب ويحتقره؛ لأن العبد متى استصغر المعصية واستقلَّها هان عليه أمرها، وعَظُمَت عند الله، وهنا يكون الهلاك والخسران".

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ**"[١].

أما إذا عظمت الذنوب عند العبد فإنها تصغر عند الله؛ لأن ذلك يدل على صدق إيمان العبد، وحياة قلبه.

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: بقدر ما يصغر الذنب عندك يعظم عند الله، وبقدر ما يعظم عندك يصغر عند الله.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ**»[٢].

خل الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التقى
واصنع كماشٍ فوق أرض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

هذا هو حال المؤمن الذي تحققت له معرفة الله ومعرفة الذنب، واستقر في قلبه الخوف من الله، فيدفعه ذلك إلى الانخلاع من الذنوب والمعاصي، والعودة إلى الله حبًّا له ورجاء لرحمته ومغفرته، وطاعةً واستجابةً لأوامره وتقربًا إليه.

---

(١) أخرجه أحمد (٣٨١٨)، والبيهقي في الشعب (٢٨٥)، وحسنه الألباني في الجامع الصغير (٢٦٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٠٨).

وكثيرًا ما يفتح القرآن للمذنبين أبوابًا من الرحمة يدعوهم من خلالها إلى المبادرة والمسارعة إلى جنة عرضها السماء والأرض.

يقول جل في علاه: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عِمرَان: ١٣٣-١٣٥].

وفي هذه الآيات إشارات وبشارات لطيفة:

أولًا: جاء ذكر المغفرة أولًا قبل ذكر الجنة؛ وذلك لأن المغفرة هي الطريق إلى الجنة، والتوبة من أعظم أسباب حصول المغفرة وبلوغ التقوى.

ثانيًا: رغم أن المتقين في أعلى مراتب المؤمنين وفي كنف رب العالمين ينعمون بجنته ومغفرته، ومع ذلك فسماحة هذا الدين ورحمته بالبشر تضع المذنب الذي ارتكب الفواحش - التي هي أبشع الذنوب وأكبرها - في عداد المتقين؛ ما دام أنه قد تخلّص من ذنبه، وأفاق من غفلته وظلمه لنفسه، وذكر الله فاستغفر وأناب.

فحسبُ العبد التائب أن شعلة الإيمان ما تزال في روحه لم تنطفيء، ونداوة الإيمان في قلبه لم تجف، وصلته بالله ما تزال حية لم تذبل، وأنه يعرف ويعترف بأنه عبد يخطيء وأن له ربًا يغفر!

فهو يذكر الله ولا ينساه، لم يصر على الخطيئة، ولا يتبجح بالمعصية في غير تحرج ولا حياء، إنه ذلك العبد التقي الذي في قلبه الهدى، وفي ضميره الندى، ولم تظلم روحه.

والله يعلم ضعف عبده فلا يُغلق في وجهه الباب ويدعه مطرودًا من رحمته، بل يظل ذلك المذنب في كنف الله ومحيط عفوه ورحمته وفضله.

ودومًا هذا هو حال المؤمنين؛ يدركون رحمة الله، ويعلمون أن الذنوب لا يسترها ويتجاوز عنها سوى الله: ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾[آل عِمرَان: ١٣٥].

لا أحد يغفر ويعفو إلا الله، فلا ملجأ ولا ملتجأ من الله إلا إليه، فهو اللطيف الذي يلطف بعبده في جميع الأمور، وينتشله من دركات الشرور، لا سيما عند عدم الإصرار على الذنب: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عِمرَان: ١٣٥]. لم يصروا أبدًا؛ أخطأوا فاعترفوا، وأذنبوا فاستغفروا، وأساؤوا فندموا، فغفر الله لهم.

فكانت العاقبة: ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾[آل عِمرَان: ١٣٦].

***

من طبيعتنا الذنب

وإن وقفة مع النفس ثم التأمل والنظر نجد أن من طبيعتنا الخطأ.

ولكن منا من يتوب وينيب ويستغفر مولاه، ومنا من يصر ويستمر ويكابر، وهذا هو المغبون المخذول عن طريق الهداية، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ**»(١).

لقد جبل الله الإنسان على النقص والعيب والزلل والخطأ والتقصير في جنب الله من ترك للواجبات، وارتكاب للمحرمات، أو التفريط في أوامر الله ونواهيه.

والعبد المؤمن متى لازم التوبة وداوم على الاستغفار والإنابة إلى الله في كل وقت وحال، فهنا ينجبر لديه النقص ويتم له القول والعمل.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ**»(٢).

وهناك من الناس من يكون كالسنبلة تُميلها الرياح، وتتملكهم علائق الدنيا تارة، ويتملكونها تارة أخرى فأولئك كما ذكر الله: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[التّوبَة: ١٠٢].

سبحان من يعفو ونخطىء دائمًا ولم يزل مهما هفا العبد عفا

يعطي الذي يخطىء ولا يمنعه جلاله عن العطا لذي الخطا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٩٩)، وقال: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث علي بن مسعدة عن قتادة. وابن ماجه (٤٢٥١) وحسنه الألباني في المشكاة (٢٣٤١).

قال الحبيب ﷺ «**لَوْلَا أَنَّكُمْ تُذْنِبُونَ لَخَلَقَ اللهُ خَلْقًا يُذْنِبُونَ يَغْفِرُ لَهُمْ**»(١).

فمن أراد الجنة فليغالب نفسه وليحملها على ما تكره؛ فالنفس إن لم تشغلها وتجاهدها بالطاعة شغلتك بالمعصية.

لا سيما إن من طبيعة النفس الميل إلى الشهوات التي هي من دواعي الهوى الذي يهوي بالعبد نحو الهاوية والهلاك والبوار ويقوده إلى الضلال عن سبيل الله وعن الحق والهدى، قال الله مخاطباً نبيه داوود عليه السلام: ﴿وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾[ص: ٢٦].

فيقع العبد حينها تحت قهر النفس الأمارة بالسوء فيتصور القبيح حسنًا والضرر نفعًا؛ فلا طموح نحو المعالي والجنان، بل كسل وفتور ورخاء وطلب للراحة دون عناء، والاغترار بكل سهل وعاجل من حق أو باطل.

قال تبارك وتعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ ﴾[القِيَامَة: ٢٠-٢١]. وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: "**أَنَّ رَجُلًا أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَحَدُنَا يُذْنِبُ، قَالَ:** «**يُكْتَبُ عَلَيْهِ**» **قَالَ: ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ مِنْهُ وَيَتُوبُ، قَالَ:** «**يُغْفَرُ لَهُ وَيُتَابُ عَلَيْهِ وَلَا يَمَلُّ اللَّهُ حَتَّى تَمَلُّوا**»(٢).

أتوب إليك يا رحمن مما جنت نفسي فقد كثرت ذنوب

وأشكو يا إلهي من معاص أصابتني وآذتني عيوب

***

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٨).

(٢) أخرجه الحاكم (١٩٥) وقال صحيح على شرط البخاري ووافقه الذهبي، والبيهقي في الشعب (٦٦٩٥)، وحسن إسناده الهيثمي في المجمع (١٧٥٣٠).

الذنوب مشارب وأبواب

الذنوب أنواع ومشارب وتعود جميعها لأصول أربعة[١] :

الملكية: وهي أعظم أنواع الذنوب حيث الشرك واتصاف العبد بصفات الرب جل وعلا من العلو والكبرياء

الشيطانية: حيث يتشبه العبد بالشيطان في الحسد والبغي والإفساد

السبعية: وهي التشبه بالسباع الضارية في العداوة والغضب ونحوها

البهيمية: وهي أكثر ذنوب الخلق وهي موافقة البهائم في الشر والحرص على شهوة البطن والفرج.

أما أبواب الذنوب والمعاصي على العبد فهي كما يأتي:

اللحظات: وهي أصل الحوادث وهي النظر المحرم؛ ذلك السهم المسموم من سهام إبليس على القلب، قال سبحانه:﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[النُّور: ٣٠].

فنظرة ثم خطرة ثم فكرة ثم شهوة ثم إرادة ثم تقوى فتصير عزيمة ثم يقع الفعل عياذًا بالله.

وقد قيل: الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده.

الخطرات: وهي ما يكون في النفس من فكر وتصور وتعلق خفي في الصدور قال سبحانه: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾[غَافر: ١٩].

وتتولد الخطرات من العجز والكسل، أما ما يتولد عنها فهو التفريط والحسرة والندم.

---

١ الداء والدواء ط المجمع (١/ ٢٨٧).

اللفظات: كثيرا ما يجر اللسان على العبد من الآفات والسيئات، إما بكلام باطل أو سكوت عن حق، فأكثر الناس منحرف في كلامه وسكوته، وغالب العصيان يكون من حصائد اللسان، والعبد الموفق يحفظ لسانه من كل لفظة ضائعة لا يرجو منها الربح والزيادة في دينه.

قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[ق: ١٨].

الخطوات: فمتى ما وجد العزم عند العبد على الفعل تحركت قدماه نحو المعصية باتباع خطوات الشيطان، أما إن كان العبد مع ربه ملازما لطاعته فإن الله يحفظه ويحفظ له الخطى، فلا ينقل قدمه إلا فيما يرجو ثوابه ويعود عليه بالنفع والأجر.

***

روح التوبة

إن الاستغفار هو روح التوبة وعلامتها في الغالب، وهو دليل على حساسية القلب والشعور بالإثم وعلى الرغبة في التوبة، وقد قرن الله بين التوبة والاستغفار في كتابه الكريم في مواضع شتى ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[المائدة: ٧٤].

والاستغفار وصف أساس وأمر لازم للمؤمنين وثمرة أكيدة عند تحقق التوحيد كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ *﴾[محمد: ١٩].

وقد جمع نبينا صلى الله عليه وسلم بين كلمة التوحيد والاستغفار في مواضع عدة، منها ما جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَالَ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الحَيَّ القَيُّومَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، غُفِرَ لَهُ وَإِنْ كَانَ فَرَّ مِنْ الزَّحْفِ**»(١).

والاستغفار هو طلب المغفرة من الله باللسان مع حضور القلب، فأما مجرد النطق باللسان دون حضور القلب وتأثره فهو كالاستخفاف والاستهزاء بالله.

قال الفضيل رحمه الله: "استغفار بلا إقلاع توبة الكذابين"(٢).

والاستغفار ذكر عظيم، وكان ﷺ يحب الاستغفار ويكثر منه، ويداوم عليه. وكان يصلي تلك الصلاة العظيمة الخاشعة ثم إذا فرغ من صلاته المفروضة وانتهى، جعل ختامها الاستغفار ثلاثًا فيقول ﷺ: "أستغفر الله. أستغفر الله. أستغفر الله"، لأن العبد عرضة لأن يقع منه نقص في صلاته بسبب غفلة أو سهو.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٧٧)، وقال: حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وأبو داود (١٥١٧) وقال الألباني: صحيح لغيره، في تحقيق رياض الصالحين (١٨٨٣).

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٦٧٧٧).

كما شرع الاستغفار في ختام صلاة الليل قال تعالى عن المتقين: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ *وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[الذّاريَات: ١٧-١٨].

وقال تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾[آل عِمرَان: ١٧].

وهكذا أيضًا جاء الأمر لوفود الرحمن في الحج أن يختموا أيامهم المباركات وهم يتنقلون بين المشاعر يتلقون الرحمات في صعيد عرفات بأن يلهجوا بالاستغفار، والتضرع إلى العزيز الغفار، وذلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[البَقَرَة: ١٩٩].

كما شرع الاستغفار في ختم المجالس، حيث أمر النبي صلى الله عليه وسلم عندما يقوم الإنسان من المجلس أن يقول: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ**»[١].

وكذلك شرع الاستغفار في ختام العمر وفي حالة الكبر، فها هو نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم يتلقى التوجيه المبارك من ربه الرحيم وهو يودع الدنيا إلى الرفيق الأعلى، كما في سورة التوديع بعد أن أكمل مهمته، وأدى رسالته، وقام بها خير قيام، فكان التوجيه والأمر حينها بقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾[النّصر: ٣].

أستغفر الله ذنبًا لست محصيه رب العباد إليه القول والعمل

وقال ابن صبيح رحمه الله: شكا رجل إلى الحسن الجدوبة فقال له: استغفر الله. و آخر شكا جفاف بستانه فقال له: استغفر الله. فقلنا له في ذلك فقال: ما قلت من عندي شيئًا إن الله تعالى يقول في سورة نوح: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا *يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا *وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾[نُوح: ١٠-١٢].

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٧٦٩) وأبو داود (٤٨٥٩) وصححه الألباني في الترغيب (١٥١٧) من حديث أبي برزه الأسلمي.

وقال الشعبي رحمه الله: "خرج عمر رضي الله عنه يستسقي، فلم يزد على الاستغفار حتى رجع فأمطروا، فقالوا: ما رأيناك استسقيت؟ فقال: لقد طلبت بمجاديح السماء التي يستنزل بها المطر". مؤكدًا رحمه الله ورضي عنه ما للاستغفار من الثمار والبركات.

فالاستغفار سبب لمغفرة الله للذنوب، ونزول الغيث، وسعة الرزق، وكثرة المال والأولاد، والمستغفر الصادق تصغر الدنيا في قلبه وتزول الوحشة بينه وبين ربه، كما أن الاستغفار مع التوبة سبب للقوة في الدين والدنيا والمتاع الحسن.

قال جل شأنه: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هُود: ٣].

فهو العفو الغفور، وهو الرحيم الغفار، وهو سبحانه أهل التقوى وأهل المغفرة، الذي يسدل على عبده ثوب عطفه وبره ورأفته ورحمته، فلا يكشف أمره ولا يهتك ستره، بل يظهر الجميل ويستر القبيح. سبحانه ما أعظمه وما أجله. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النِّسَاء: ١١٠].

ورغم قبح الخطايا وبشاعة الذنوب، ورغم أنها لا تخفى على علام الغيوب، وأن علمها عند الله في كتاب: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه: ٥٢]

إلا أن الله يسترها في الدنيا ويتجاوز عن عقوبتها في الآخرة، ويصون العباد من أن يمسَّهم العذاب متى ما عادوا إلى ربهم وداوموا على الاستغفار قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفَال: ٣٣].

وكل دعاء فيه معنى استغفار فهو استغفار، وأعظم الاستغفار هو ما جاء عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "**سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ " قَالَ: «وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ»**[1].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: "من ذكر خطيئة عملها فوجل قلبه منها فاستغفر الله عز وجل لم يحبسها شيء حتى تمحى".

وهذا بكر بن عبدالله المزني رحمه الله يقول: "إن أعمال بني آدم ترفع فإذا رفعت صحيفة فيها استغفار رفعت بيضاء وإذا رفعت صحيفة ليس فيها استغفار رفعت سوداء".

والاستغفار يطهر القلب ويغسل الذنب، وهو بمثابة الصابون للخطايا والآثام؛ فإن المعاصي سواد، والتوبة والاستغفار جلاؤها.

سئل ابن الجوزي رحمه الله: "أأسبح أو أستغفر؟، فقال: الثوب الوسخ أحوج إلى الصابون من البخور".

وإن ابتليت بذلة وخطيئة فاندم وبادرها بالاستغفار

وكان نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم مع مكانته عند ربه ومغفرة ما تقدم وما تأخر من ذنبه يقول: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللهِ، فَإِنِّي أَتُوبُ، فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ، مَرَّةٍ**»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٦) .

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٢).

وفي الحديث القدسي يقول الله تبارك وتعالى: «**يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ**"[١].

ما أعظم كرم الله! وما أوسع رحمته! يغفر الذنب ويقيل العثرة ويتجاوز عن الخطيئة، يدعو العباد بالليل والنهار إلى التوبة والاستغفار، يتودد لهم، ويتقرب إليهم، ويبسط يده، وينشر رحمته وذلك كل ليلة.

فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**»[٢].

يا رب هل من توبة ... تمحو الخطايا والذنوب
وتزيل هم القلب عني ... والكآبة والشحوب
أدعوك في ليل بهيم ... والدمع مدرارٌ سكيب
أنت المؤمل والمعين ... وأنت يا ربِّ المجيب

***

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٥٩).

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾

كتب الله الرحمة وأوجبها على نفسه العلية، حتى شملت كل عبد مسيء؛ ما دام أنه قد تاب وعاد، وأصلح العمل، فحينها يتفضل الله عليه بالرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء، قال سبحانه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[الأنعام: ٥٤].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِائَةَ رَحْمَةٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، وَأَرْسَلَ فِي خَلْقِهِ كُلِّهِمْ رَحْمَةً وَاحِدَةً**»(١).

إلا أن تلك الرحمة قد شملت الخلائق أجمعين؛ من حلمه على عباده ورزقه إياهم، وتوفيقه لهم في أمور معاشهم ودنياهم، وغير ذلك مما يدل على فضله الواسع ورحمته البالغة، إنها رحمة عظيمة أعظم من رحمة الأم بولدها، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سَبْيٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ قَدْ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ، فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ: «**أَتُرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ**» قُلْنَا: لاَ، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لاَ تَطْرَحَهُ، فَقَالَ: «**لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا**»(٢).

وفي هذا بشارة واضحة وجلية بسعة رحمة رب العالمين جل وعلا، وأنها دومًا تسبق وتغلب غضبه، رغم أنه الملك الجبار القاهر فوق عباده والقادر على كل شيء.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٦٩)، ومسلم (٢٧٥٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**لَمَّا قَضَى اللَّهُ الخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي**»[١].

ولهذا جاء في القرآن ما يجلّي لنا ذلك ويؤكده، قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ *وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾[الحجر: ٤٩-٥٠].

تأمل يا رعاك الله ..كيف كان هذا النبأ الكريم يحمل في استهلاله الرحمة لكل مذنب؛ فإنه يبقى عبدا لله مهما اقترف من خلال لفظ العبودية: (نَبِّئْ عِبَادِي) ثم تأمل كيف قدَّم الله المغفرة والرحمة على العذاب الأليم فقال: (أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) فوصف نفسه بأنه غفور رحيم، ولم يقل:(أنا الجبار المنتقم)، أو أي وصف يوحي بالشدة والغضب؛ فييأس من خالف وعصى؛ حكمة منه ورحمة، كذلك لم ينسب الله الألم والانتقام والشدة والبأس إليه، بل جعله وصفاً لعذابه، فقال:(وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ)؛ دليلاً على سعة رحمة الله، وأن عفوه أعجل وأسبق من بطشه وانتقامه.

***

(١) أخرجه البخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١).

الجهل قرين المعاصي

إن الجهل والانغماس في وحل الجهالة والجاهلية أعظم سبب وأقصر طريق إلى معصية الله، ولهذا كثيرًا ما يذكر الجهل في القرآن ويكون المراد هو نوع من المعاصي.

قال قتادة رحمه الله: "أجمع أصحاب رسول الله ﷺ أن كل ما عُصي الله به فهو جهالة". وقال غيره : "كل من عصى الله فهو جاهل".

والمراد إما: عدم العلم بالحق النافع، وإما: عدم العمل بمقتضى ذلك العلم، ولهذا جاء وصفهم في القرآن أنهم ﴿يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾[النِّسَاء: ١٧]. أي جهل بمقام الله وقدره، أو جهل بنظر الله ومراقبته، أو جهل بعاقبة المعاصي وإيجابها لسخط الله، فهو جهل يقود إلى العصيان.

من ذلك ما كان من بني إسرائيل مع نبيهم موسى عليه السلام حين أمرهم بذبح البقرة – وهو من أمر الله – فكان قولهم:﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾[البَقَرَة: ٦٧]، فرد عليهم موسى عليه السلام فقال:﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[البَقَرَة: ٦٧]، ولم يقل أعوذ بالله أن أكون من المستهزئين أو الساخرين؛ تقريرا منه أن الاستهزاء أو السخرية ضرب من (الجهل).

كذلك الفواحش والمعاصي جميعها من (الجهل)، جاء بيان ذلك من نبي الله يوسف عليه السلام حين دعته امرأة العزيز ومن معها من النسوة إلى الفاحشة، فرد عليهن داعيا ربه قائلًا: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[يُوسُف: ٣٣].

ولما سأل نوح عليه السلام ربَّه أن ينجِّي ابنه الكافر من الغرق في الطوفان، عاتبه الله ووعظه وحذَّره أن يكون من الجاهلين فقال جل وعلا: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[هُود: ٤٦].

أما العلم فهو بمثابة النور والهدى اللذين يمنعان المرء من اقتراف المحرمات والمنهيات، بل إن العلم باب من أبواب تعظيم الله وتوقيره، ومفتاح لفعل الطاعات.

وكذلك هو شأن نبينا ﷺ أعرف الخلق بالله؛ لذا كان أخشاهم لله وأتقاهم، بل وأكثرهم إقبالًا على الله عبادةً وتضرعًا، وتوبةً واستغفارًا.

ولا غرو في ذلك أو غرابة فهو إمام العلماء والحلماء وقدوة العالمين والعارفين.

ومتى عرف العبد ربَّه وتعرَّف على أسمائه وصفاته؛ كأن يستشعر العبد أن الله سميع؛ يسمع ما نطق به العبد من قبيح الكلام ، وأن الله بصير؛ يبصر ما يعمله العبد من سيء الأفعال، وأنه شهيد على العباد، رقيب حفيظ على أعمالهم وأن ذلك كله في كتاب: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩]، حينها يُرزق العبد الشيء العظيم، والحظ الوافر، من خشية الله ومهابته، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فَاطِر: ٢٨].

وهم العلماء الذين تعرَّفوا على الله فازدادوا له خشية؛ فكل من كان بالله أعلم كان أكثر له خشية، وخشية الله توجب للعبد الكفُّ عن المعاصي، والاستعداد للقاء الله.

قال ابن القيم: "ومن كان بالله أعرف كان منه أخوف".

والخشية: هي خوف مقرون بعلم.

وهذا دليل على فضيلة العلم، فإنه داع إلى خشية الله، وأهل خشيته هم أهل كرامته، قال تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البَيِّنَة: ٨].

***

قوافل التائبين

ورغم الفتن والمحن هنا وهناك، ورغم تدفق الشهوات والملذات التي تعصف بالأفراد والمجتمعات، إلا أن قوافل التائبين قد انطلقت تقطع المفاوز والقفار، وسارت بهدى وتوفيق من الرحيم الغفار، لتلحق بركب الصالحين والأبرار، ترجو الفوز بالجنة والنجاة من النار، لسان حالهم يهتف: رباه إياك نعبد، ورحمتك نرجو، ورضاك نبتغي وننشد.

فأعلنها أخي توبة صادقة، وكن شجاعًا ذا همة عالية، وكن حقًا عبدًا لله تعالى.

أخي الكريم ! ألم يأن لك أن تسير في قافلة التائبين؟!.. ألا تريد الجنة ونعيمها؟!.. ألا ترغب في النجاة من النّار وعذابها؟!.

لهونا لعمر الله حتى تتابعت ذنوب على آثارهن ذنوب

فياليت أن الله يغفر ما مضى ويأذن في توباتنا فنتوب

أخي المبارك ألا تريد النظر إلى وجه ربك الكريم، قال سبحانه:

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ *إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[القِيَامَة: ٢٢-٢٣].

هذه الوجوه الناضرة، نضَّرها أنها إلى ربها ناظرة.. إلى ربها.. إنها الرفعة العالية في دار النعيم. ذلك النعيم الذي أعده الله للنفس المؤمنة التي قد ارتفعت بالأمس عن ملذات الدنيا وشهواتها، وحطامها وزخارفها، وسمت عن وساوس النفس ورغباتها ونزواتها، فكان الجزاء هو الجنة، تلك الدار العالية، قال الله عز وجل: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القَصَص: ٨٣].

نعم إنها جنة عالية .. سامية الرتبة .. بعيدة الآفاق..

إنها سلعة الله الغالية التي اشرأبَّت لها أرواح المتقين، وشمَّر لها العاملون.

وإن العبد الموفق لا يغتر بحال العصاة مهما فُتح عليهم من الدنيا، بل عليه أن يحذر أن يكون من الظالمين المعرضين عن التوبة، فإن العباد كلهم ما بين تائب أو ظالم كما ذكر الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[الحُجرَات: ١١].

قال مجاهد رحمه الله: "من لم يتب إذا أمسى، وإذا أصبح، فهو من الظالمين" . فالله يمهل ولا يهمل، ويستر ويحلم، فإن تاب العبد وإلا كان ما يجده في الدنيا من خير وعطاء وهو مقيم على معصية الله بمثابة استدراج ليزداد إثمًا، ويكون عرضة للجزاء والعقاب. قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ *نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦].

قال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله: "المغبون من عطّل أيامه بالبطالات، وسلّط جوارحه، على الهلكات ومات قبل إفاقته من الجنايات".

***

﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾

أخي المبارك..

ألا تريد أن تصافح نبيك محمد ﷺ، وتجالس الأنبياء والصالحين، في جنة أعدها الله للمتقين المطيعين لله رب العالمين ولرسوله الأمين.

قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النِّسَاء: ٦٩].

أخي الموفق ..

ها هو القرآن يصور لنا ذلك النعيم: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [مُحَمَّد: ١٥].

حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون، وبين أنهار الماء واللبن والخمر والعسل.

ألا تريد النعيم المقيم في جنة عرضها السماوات والأرض.

إنه فيض من عطاء الله، لا مقابل له من عمل العبد إلا أنه اهتدى ورجع عن الضلال، وتاب إلى حمى ربه ولاذ بالله بعد الشرود والمتاهة.

إن روح الإنسان لتستمتع أحيانًا بلمحة من جمال الإبداع الإلهي في الكون أو النفس؛ تراها في الليلة القمراء.. أو الليل الساجي.. أو الفجر الوليد.. أو الظل المديد.. أو البحر العباب.. أو الصحراء المنسابة.. أو الروض البهيج.. أو الطلعة البهية.. أو القلب النبيل.. أو الإيمان الواثق.. أو الصبر الجميل.. إلى آخر مطالع الجمال في هذا الوجود.. فتغمرها النشوة وتفيض بالسعادة وتتوارى عنها أشواك الحياة .. كيف بها وهي تنظر لا إلى جمال صنع الله ولكن إلى جمال ذات الله؟

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ *إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[القِيَامَة: ٢٢-٢٣].

وما لها لا تتنضّر وهي إلى جمال ربها تنظر؟.

إن الإنسان لينظر إلى شيء من صنع الله في الأرض.. من طلعة بهية..

أو زهرة ندية .. أو روح نبيل .. أو فعل جميل ؛ فإذا السعادة تفيض من قلبه على ملامحه؛ فتبدو فيها الوضاءة.. فكيف بها حين تنظر إلى جمال الكمال.

فما بال أناس يحرمون أرواحهم أن تعانق هذا النور الفائض بالفرح والسعادة؟.

إنها نعمة النظر إلى وجه الله الكريم..

والتي تعد أعظم نعمة ينعُم بها الله على أهل الجنة.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يُونس: ٢٦]،

والحسنى هي الجنة، وأما الزيادة فهي النظر إلى وجه الله الكريم.

وهي المزيد الذي ذكر الله في قوله:

﴿لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

***

يوم عظيم

أخي إنك لن تندم على التوبة أبدًا ، بل سوف تسعد بإذن الله في الدنيا والآخرة سعادة لا شقاء بعدها، فأمامك يوم العظيم:

﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطفّفِين: ٦]. يوم تبدو الحقائق، وتظهر الخفايا، وتنشر الصحف، وتكشف الأسرار: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩].

يوم شديد طويل قد شاع فيه الصياح والعويل:﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النّبَإ: ٤٠]. يوم لايغني فيه أحد عن أحد ﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا ﴾ [لقمان: ٣٣].

إنه يوم القيامة، يوم الحسرة والندامة ﴿يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ *إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٨-٨٩].

إنه يوم التغابن والتداين والحشر والجزاء ﴿يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفِطار: ١٩]. يوم تبدّل فيه الأرض، وتفتح فيه أبواب السماء، يوم تشيب لهوله الولدان، وتظهر فيه عورات بني الإنسان.

يوم ينكشف فيه المستور، وتتبدل فيه الأمور. قال الله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحَاقَّة: ١٨].

فالكل مكشوف.. مكشوف الجسد والنفس والضمير.. مكشوف العمل والنية والمصير.. وتسقط جميع الأستار التي كانت تحجب الأسرار.. وتتعرى النفوس تعري الأجساد.. وتبرز الغيوب بروز الشهود.. ويتجرد الإنسان من حيطته ومن مكره ومن تدبيره ومن شعوره.

إنه يوم الأحداث العصيبة والأيام الشداد .. أيام مليئة بالندم والحسرة على أيام الدنيا الخالية وما عملنا فيها، والأسى والأسف على تقصيرنا وتفريطنا فيها: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عِمرَان: ٣٠].

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحَاقَّة: ١٨].

ما أقسى الفضيحة على الملأ .. وما أخزاها على عيون الجموع.. أما عين الله فكل خافية مكشوفة لها في كل آن، ولكن لعل الإنسان لا يشعر بهذا حق الشعور وهو مخدوع بستور الأرض.

فها هو ذا يشعر به كاملًا وهو مجرد في يوم القيامة. وكل شيء بارز في الكون كله. الأرض مدكوكة مسواة لا تحجب شيئًا وراء نتوء ولا بروز.

﴿كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا *وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا *وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ [الفَجر: ٢١-٢٣].

والسماء يومئذ متشققة واهية لا تحجب وراءها شيئًا، والأجسام معراة لا يسترها شيء، والنفوس كذلك مكشوفة ليس دونها ستر، وليس فيها سر.

ألا إنه لأمر عصيب، أعصب من دك الأرض والجبال، وأشد من تشقق السماء، وقوف الإنسان عريان الجسد، عريان النفس، عريان المشاعر، عريان التاريخ، عريان العمل ما ظهر منه وما استتر، عريان حقًا.. وأمام تلك الحشود الهائلة من خلق الله من الإنس والجن والملائكة، وتحت جلال الله وعرشه المرفوع فوق الجميع، عريان من كل ساتر. كيف به وهو كذلك تحت عرش الجبار؟ وأمام الحشد الزاخر بلا ستار؟

ألا إنه لأمر.. أمرٌ من كل أمر.

***

وللأبدان توبة

قال رسول الله ﷺ: "**كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ، فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللهَ فَاعْبُدِ اللهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ، فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ، فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللهِ، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ، فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ، فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ**"[١].

وهذه الحادثة تدل على فضل التوبة وأنها طوق نجاة للغارقين في بحور الخطايا المظلمة. ولكن لابد مع التوبة من الرفيق الصالح .. المؤمن الصادق .. المعين على الطاعة بعد عون الله وتوفيقه؛ لذا قال العالم للتائب: "انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسًا يعبدون الله فاعبد الله معهم ولاترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء" .

وهذا يؤكد أهمية الصحبة الصالحة والمجالس الطيبة للتائب ولمن أراد الطريق إلى الله.قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٦٦). عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه

فلابد من مفارقة التائب العائد إلى الله لمجالس السوء، ومواضع الخطأ والذنوب، ومفارقة أهل العصيان الذين يزينون له الرذيلة فيستحسنها العبد بعد ذلك، ويقبل على معصية الله.

قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فَاطِر: ٨].

قال محمد بن كعب القرظي رحمه الله: "التوبة يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة سيء الإخوان".

لابد من مفارقة المواضع التي أصاب العبد فيها الذنوب، ومفارقة من يعين على الآثام ومقاطعته، إلا من وهبه الله العلم واليقين والصبر والحكمة، فيقوم لهم بواجب النصح والارشاد والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، بقلب صادق، ووجه طليق، ولسان لين، وكلمة طيبة.

كما أن التائب يوم يجالس الصالحين والأخيار الذين ينتقون أطايب الكلام، ويذكّرونه بالحق والهدى ويعينونه على الخير والاستقامة، فإنه بإذن الله سوف يزول همه، ويذهب عنه الضيق، ويكون منشرح الصدر، مرتاح البال، وفي راحة ضمير وسعادة غامرة لم يعهدها من قبل.

فمن كان يأمل النجاة ويرجو رحمة ربه فعليه بالرفقة الصالحة الناصحة، الذين عمروا مجالسهم بذكر الله وتزينت قلوبهم بتقوى الله.

ففي الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ﷺ: «**الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**»[1].

(١) أخرجه أحمد (٨٠٢٨)، وأبو داود الطيالسي (٢٦٩٦)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٩٢٧).

أنت في الناس تقاس بالذي اخترت خليلا
فاصحب الأخيار تعلو وتنل ذكرًا جميلا

فلا يكفي مجرد النية، أو الرغبة في التوبة، بل لابد أن يتجاوز المسلم رغبة القلب إلى توبة البدن. وهي الانتقال ببدنه مفارقًا مجالس أهل العصيان إلى مجالس الأخيار التي يحفها التقوى والإيمان.

***

لا يأس من رحمة الله

الحذر ثم الحذر من تسرب اليأس أو القنوط إلى النفس مهما بلغت الذنوب، ولا سيما إذا لازم العبد الاستغفار في أحواله وكانت توبته صادقة ناصحة، وما دامت الروح في الجسد ولم تطلع الشمس من مغربها، فإن الله ذو الفضل العظيم الذي يتفضل على التائب برضوانه وإحسانه ورحمته. قد قال تعالى:

﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[الزُّمَر: ٥٣].

وهنا يفتح القرآن نافذة أمل تُشِّعُ في الصدور، وتقود القلوب للهدى والنور؛ فلا يأس من رحمة الله ولا قنوط من عفو الله .. فمن شاء فليرجع إلى الحمى الآمن قبل أن تفوت الفرصة وتنقضي المهلة.

ولا يزال القرآن يقرر الأمل في النفوس، ويقطع حبال اليأس والقنوط، عن الغارقين في بحار الردى ولجج الهلكات، يوم أن مد لهم الرحمن أطواق النجاة، ومصابيح الدجى؛ بأبلغ عبارة، وأعظم بشارة للتائب؛ يوم يتوب ويقترن بتوبته ويتبعها الإيمان والعمل الصالح.

فثمرة ذلك مغفرة الذنوب، وتبديل السيئات إلى حسنات، مهما عظمت ذنوب المرء وبلغت: الشرك والقتل والزنا .. لكنه تاب بعدها ورجع إلى ربه ومولاه.

لقد بيّن ذلك ربنا الكريم بأحسن وأكمل بيان فقال: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا* يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا* إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا* وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفُرقان: ٦٨-٧١].

وعن بريدة الأسلمي رضي الله عنه قال: **أَنَّ مَاعِزَ بْنَ مَالِكٍ الْأَسْلَمِيَّ، أَتَى رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي قَدْ ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَزَنَيْتُ، وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ تُطَهِّرَنِي، فَرَدَّهُ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَاهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ، فَرَدَّهُ الثَّانِيَةَ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ: «أَتَعْلَمُونَ بِعَقْلِهِ بَأْسًا، تُنْكِرُونَ مِنْهُ شَيْئًا؟» فَقَالُوا: مَا نَعْلَمُهُ إِلَّا وَفِيَّ الْعَقْلِ مِنْ صَالِحِينَا فِيمَا نُرَى، فَأَتَاهُ الثَّالِثَةَ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ أَيْضًا فَسَأَلَ عَنْهُ، فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُ لَا بَأْسَ بِهِ، وَلَا بِعَقْلِهِ، فَلَمَّا كَانَ الرَّابِعَةَ حَفَرَ لَهُ حُفْرَةً، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ، قَالَ، فَجَاءَتِ الْغَامِدِيَّةُ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ فَطَهِّرْنِي، وَإِنَّهُ رَدَّهَا، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، لِمَ تَرُدُّنِي؟ لَعَلَّكَ أَنْ تَرُدَّنِي كَمَا رَدَدْتَ مَاعِزًا، فَوَاللهِ إِنِّي لَحُبْلَى، قَالَ: «إِمَّا لَا فَاذْهَبِي حَتَّى تَلِدِي»، فَلَمَّا وَلَدَتْ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ فِي خِرْقَةٍ، قَالَتْ: هَذَا قَدْ وَلَدْتُهُ، قَالَ: «اذْهَبِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَفْطِمِيهِ»، فَلَمَّا فَطَمَتْهُ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ فِي يَدِهِ كِسْرَةُ خُبْزٍ، فَقَالَتْ: هَذَا يَا نَبِيَّ اللهِ قَدْ فَطَمْتُهُ، وَقَدْ أَكَلَ الطَّعَامَ، فَدَفَعَ الصَّبِيَّ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَحُفِرَ لَهَا إِلَى صَدْرِهَا، وَأَمَرَ النَّاسَ فَرَجَمُوهَا، فَيُقْبِلُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِحَجَرٍ، فَرَمَى رَأْسَهَا فَتَنَضَّحَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِ خَالِدٍ فَسَبَّهَا، فَسَمِعَ نَبِيُّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبَّهُ إِيَّاهَا، فَقَالَ: «مَهْلًا يَا خَالِدُ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ»، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَصَلَّى عَلَيْهَا، وَدُفِنَتْ**(١).

ما أحلم الله على عباده! وما أعظم رحمة الله! فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، يقبل توبة العباد مهما أجتالهم الشيطان بشروره، واحتوتهم أوحال الرذيلة، وحفَّهم شؤم المستنقع، ومهما ما ترك العبد الذنوب خوفًا من الله عز وجل ورجاءً لثوابه وإيثارًا لطاعته على معصيته، فإن تلك السيئات الماضية يبدلها الله إلى حسنات.

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٩٥).

وما ذاك إلا لأن التائب كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر فينقلب الذنب طاعة وتصير السيئة حسنة، قال الله عز وجل: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عِمرَان: ٨٩].

إنـه الله .. واسع الحلم والجود والرحمة .. يفتح باب التوبة ولا يغلقه في وجه المنيب إليه من جميع صنوف الضلال.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لَوْ أَخْطَأْتُمْ حَتَّى تَبْلُغَ خَطَايَاكُمُ السَّمَاءَ، ثُمَّ تُبْتُمْ، لَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ**»[1].

يقول العز بن عبدالسلام رحمه الله: "اليأس والقنوط استصغار لسعة رحمة الله عز وجل ومغفرته، وذلك ذنب عظيم، وتضييق لفضاء جوده".

هل يا ترى أصحو من سكرة الشهوة ... أم يا ترى أبقى في هذه الشقوة

كيف القدوم على الجبار بالزلل ... أم كيف ألقاه من دونما عمل

قلبي لما يلقى قد أن بالشكوى ... دمعي جفا عيني من قلة التقوى

***

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٤٨) وحسنه الألباني في الصحيحة (٩٠٣).

حياة التائبين

تأمل.. ثم انظر إلى الفرحة واللذة والسرور التي تجدها في قلبك ونفسك والتي تحصل لك بعد التوبة النصوح.

الله رحيم بعباده يعلم ضعف العباد وعجزهم؛ فليس بين من يسرف في المعصية ويتلوث بالذنوب وبين الرحمة الندية والمغفرة الإلهية إلا التوبة والأوبة إلى ربنا سبحانه وتعالى.

فالباب مشرع، ووراء الباب النعيم المقيم، والفيء والظل، والندى والرخاء.

والله يعلم التوبة الصادقة ويقبلها، ويعلم ما أسلف العباد من السيئات فيغفرها.

قال الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مَريَم: ٥٩].

جيل أضاع الصلاة وتركها وجحدها واستغرق في الشهوات، فكان المصير وعيد من الله بالعذاب الأليم وهو الغي، وهو واد في جهنم.

ولكنه سبحانه رحيم .. جعل التوبة حاجزًا منيعًا، وحصنًا حصينًا؛ ليلوذ به هؤلاء العصاة، وليحتموا به من السقوط في ذلك الوادي الرهيب، وفتح لهم من خلال هذا الحصن المنيع بابًا إلى الإقامة الدائمة في جنات عدن وذلك متى ما تابوا وعادوا إلى الله.

فانظر إلى حياة أولئك التائبين..

حيث تتلقاهم نسمات الرحمة واللطف إلى جنات النعيم ومقام كريم..

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [مَريَم: ٦٠].

إنها توبة تثمر الإيمان وصلاح العمل والتزام الهدى .. ثم سعادة الدنيا والآخرة.

فكما أن المعرضين عن الله ورسوله قرناء الشقاء والحسرة... هناك خارج الأسوار يتجرعون سموم الذنوب المهلكة في الدنيا والآخرة؛ عوّض الله المؤمنين في دار كرامته بأن جعل لهم: السعادة والطمأنينة والرضى.

والحياة الحقيقية- الحياة الطيبة النافعة- هي حياة من استجاب لله ورسوله في ظل الإسلام والقرآن، حيث الثقة واليقين والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة بإذن الله تعالى.

إنه ذلك العبد المبارك الذي أطاع مولاه، واستجاب لربه وأقبل على عبادته ومرضاته، وابتعد عن الذنوب والمعاصي، فهو ينعم برضوان الله وتوفيقه.

وهنا يذوق العبد التائب بركات رحمة الله؛ من إقامة المروءة، وصون العرض، وحفظ الجاه، وصيانة المال- الذي جعله الله قوامًا لمصالح الدنيا والآخرة-، وينعمه بمحبة الخلق، وصلاح المعاش، وراحة البدن، وقوة القلب، وطيب النفس، ونعيم القلب، وانشراح الصدر، والأمن من مخاوف الفساق والفجار، وقلة الهم والغم والحزن.

بل وعز النفس عن احتمال الذل، وصون نور القلب أن تطفئه ظلمة المعصية، وحصول المخرج له مما ضاق على أهل العصيان، وتيسير الرزق عليه من حيث لا يحتسب، وتيسير ما تعسَّر، وتسهيل الطاعات عليه، وتيسير العلم، والثناء الحسن في الناس، وكثرة الدعاء له، والحلاوة التي يكتسبها وجهه، والمهابة التي تُلقى له في قلوب الناس، وانتصارهم له وحميتهم له إذا أُوذي أو ظُلم، وذَبِّهم عن عرضه إذا اغتابه مغتاب، وسرعة إجابة دعائه، وزوال الوحشة التي بينه وبين الله، وقرب الملائكة منه، وبعد شياطين الإنس والجن عنه، وتنافس الناس على خدمته، وخطبتهم لمودته وصحبته، وعدم خوفه من الموت، وصغر الدنيا في عينه، وعظم الآخرة في قلبه.

وحرصه على الملك الكبير، والفوز العظيم فيها. وذوق حلاوة الطاعة، ووجدان حلاوة الإيمان، ودعاء حملة العرش ومن حوله من الملائكة له، وفرح الكاتبين له، ودعاءهم له في كل وقت، والزيادة في عقله وفهمه وإيمانه ومعرفته، وحصول محبة الله له وإقباله عليه وفرحته بتوبته.

فهذه هي آثار التائبين في الدنيا.. فإذا مات تلقته الملائكة بالبشرى من ربه بالجنة وبأنه لا خوف عليه ولا حزن، ثم ينتقل بعدها من سجن الدنيا وضيقها إلى روضة من رياض الجنة ينعم فيها إلى يوم القيامة.

فإذا كان يوم القيامة، كان الناس في الحر والعرق وهو في ظل العرش.. فإذا انصرفوا بين يدي الله أَخذ به ذات اليمين مع أولياء الله المتقين، وحزبه المفلحين وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

قال الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه: اجلسوا إلى التوابين فإنهم أرق أفئدة.

***

بادر قبل أن تغادر

أخي يا رعاك الباري .. بادر بالتوبة إلى الله قبل تعذر المتاب .. وقبل طي الصحائف وغلق الباب .. وقبل أن تطبق عليك لحظات الحسرات:﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَاحَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ [الزُّمَر: ٥٦].

نعم .. يا حسرتنا ويا حسرة على العباد حين نعصي الله ونحن نأكل من رزقه، ونعيش فوق أرضه وتحت سمائه، ونتمتّع وننعَم بنعمه، ونعرف قوّته وقدرته، ونرى قهره وسطوته، ونعلم ونؤمن بأن الله يرى:

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غَافر: ١٩].

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل   خلوت ولكن قل علي رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة   ولا أن ما تخفيه عنه يغيب

أخي الحبيب لا تعصي الله وتجعله أهون الناظرين إليك وهو مطلع عليك.

يعلم ما توسوس به نفسك وما جرحته يداك .. والسر عند الله علانية ..

ولا تخفى عليه خافية.

وإذا ما خلوت بريبة في ظلمة   والنفس داعية إلى الطغيان

فاستح من نظر الإله وقل لها   إن الذي خلق الظلام يراني

قال تعالى: ﴿أَوَلاَ يعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البَقَرَة: ٧٧].

ولا تقل الصبا فيه امتهال   وفكر كم صبي قد دفنت

فالذي يسوف في التوبة، ويؤخر التزامه بطاعة الله، ولا يأتمر بأمر الله؛ فإنه في الحقيقة يفوِّت عليه عمرًا إنتاجيًا ضخمًا، ويقصِّر عمره في طاعة الله.

قدم لنفسك توبة مرجوة   قبل الممات وقبل حبس الألسن

بادر بها غلق النفوس فإنها   ذخر وغنم للمنيب المحسن

قال الحسن البصري رحمه الله: "لا يجعل الله عبدًا أسرع إليه كعبد أبطأ عنه".

وكما أن الإيمان يزيد وينقص، والمستقبل والمصير إما إلى جنة أو نار، فإن العبد إما أن يتقدم بالأعمال الصالحة أو يتأخر بالأعمال السيئة.

وتوبة الخواص تكون من تضييع الوقت في لغو أو لهو، فإنه يفضي إلى درك النقيصة، ويطفئ نور المراقبة، وأما الحافظ لوقته فهو مترق على درجات الكمال فإذا أضاعه لم يقف موضعه، بل ينزل إلى درجات من النقص، فإن لم يكن في تقدم فهو متأخر ولابد"[1] .. ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدَّثِّر: ٣٧].

فجدير بنا أن نتقرب إلى الله بالعلم النافع والعمل الصالح، والثبات على الحق مع رفقة الخير والصلاح، وسؤال ربنا العون والسداد.

قال سبحانه: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

١ ابن القيم/مدارج السالكين (١/ ٢٧٨).

خـذ مـن شـبابك قبـل المـوت والهـرم وبادر التــوب قبــل الفــوت والنـــدم

واعلـــم بأنـــك مجـــزي ومـــرتهن وراقـــب الله واحـــذر زلـــة القـــدم

البدار البدار قبل الندم .. والحذر الحذر من طول الأمل ..

والاغترار بطول البقاء في دار الفناء ..فإن الأجدر بنا هو النظر في أحوال غيرنا؛ ممن صرعهم الأجل، وأفناهم الموت، ثم الاعتبار بهم وبحالهم، ومن ثم محاسبة النفس، ودفعها وحملها دومًا وأبدًا على التوبة النصوح، والعودة الصادقة إلى الله وإلى صراطه المستقيم.

هيا بنا نسائلِ النفس !! إلى متى هذا الإعراض عن الله؟!

ألم يأنِ لنا أن نستيقظ من غفلتنا؟!.

ألم يأنِ لهذه القلوب القاسية أن تخشع وتلين لله رب العالمين .

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

***

نداء الختام

أما آن أن نستجيب لله ونقلع عن الذنوب والعصيان؛ لنفوز بالرضى والغفران؛ وننعم بالرحمة والعتق من النيران، في ظل حياة طيبة كريمة، فيها حياتنا وحياة قلوبنا، قبل فناء العمر، وانقضاء الأجل.. يناديك ربك الرحمن بنداء الإيمان .. ويدعوك للاستجابة والإذعان .. وللحياة مع توجيهات القرآن؛ لينقلك إلى حياة السعادة والطمأنينة والراحة والاستقرار:

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: "الذي حَجَبَ الناسَ عن التَّوْبَةِ طُولُ الأمَلِ، وعَلاَمَةُ التَّائِبِ إِسْبَالُ الدَّمْعَةِ، وَحُبُّ الخَلْوَةِ، والمحَاسَبَةُ لِلنَّفْسِ عِنْدَ كُلِّ هَمَّةٍ".

ويقول عمر رضي الله عنه: "بقية عمر المؤمن ذو قيمة له، يدرك فيه ما فات، ويحي فيه ما أمات، ويبدل الله سيئاته حسنات".

أقبل على مولاك وسابق إلى التوبة، وَارْبَأ بنفسك عن الغفلة والعصيان؛ فالعاقبة لأهل الطاعة والقرآن، ولأهل المعصية الخسارة والحرمان، لا تكن أسير دنياك وعبد هواك، لا تكن موطنًا للخطايا ومستودعًا للرَّزايا، تذكَّرْ ما قدَّمت يداك، وكن خائفًا من سيدك ومولاك، وإذا أسأت فأحسن، وإذا أذنبت فاستغفر، واسْتَعْلِ على نزوات النفس والشيطان، وبادر بالتوبة والإحسان في القول والعمل، وأقلِع عن اعصيان، وقم بما فرَّطْتَ فيه من الواجبات، ثُمَّ اسأل ربك القبول، فإنه يتوب على من تاب.

يَا رَاكِضًا فِي مَيَادِينِ الْهَوَى مَرِحًا ... وَرَافِلًا فِي ثِيَابِ الغَيِّ نَشْوَانَا

مَضَى الزَّمَانُ وَوَلَّى العُمْرُ فِي لَعِبٍ ... يَكْفِيكَ مَا قَدْ مَضَى قَدْ كَانَ مَا كَانَا

***

يانفس توبي

هي رسالة .. لكل من حاد عن الطريق، أو كاد أن يحيد.

هي انطلاقة .. من قيود الخطايا والآثام، إلى رحاب الرحيم الرحمن.

هي ذكرى .. أذكر بها نفسي وإخواني من المؤمنين والمؤمنات في كل مكان.

هي دعوة .. لا للترخُّص أو تمجيد العثرة الهابطة، أو هتاف بجمال المستنقع.

هي دعوة للنفس .. للنهوض بها نحو الاستعلاء، ومجاهدتها بنور العلم والطاعة، والفرار من الجهل والمعصية.

هي اضاءات .. لإقالة العثرة، وشحذ الخوف والرجاء، واستثارة المراقبة والحياء بالندم والاستغفار.

هي تنبيهات .. لكل من أسرف على نفسه، وبحث عن السعادة، والطمأنينة في مسايرة النفس، ومجاراتها باللذات العاجلة، وظن بها ريًا لظمأ غرائزه، ودوافعه المتكررة.

هي حروف وقطوف .. جمعتها أزهارًا زاكية من بساتين الصالحين؛ لأنثرها بين يدي القارئ الكريم.

يانفس توبي فإن الموت قد حانا ** واعصي الهوى فالهوى ما زال فتانا

أما ترين المنايا كيف تلقطنا ** لقطًا فتلحق أُخرانا بأُولانا

في كل يوم لنا مَيْتٌ نشيعه ** نرى بمصرعه آثار موتانا

لا تقل ذنوبي كثيرة .. فإن رحمة الله أعظم .. وعفوه أوسع وأشمل.

واعلم أن كل تائب .. لابد له من الهم والغم والضيق في أول التوبة، وألم بفراق محبوبه، وهذا الألم والقبض الذي يحصل دليل على حياة القلب وقوة الاستعداد، فعلامة السعادة أن تكون حسنات العبد خلف ظهره وسيئاته نصب عينيه..وكلما تذكرت الذنوب والخطايا .. ارجع إلى ربك واستغفرالله..وابك على خطيئتك .. واجعل الموت والأجل بين عينيك..وتفكر فيما مضى من الذنوب.

قال مالك بن دينار رحمه الله:"البكاء على الخطيئة يحط الخطايا كما تحط الريح الورق اليابس" .

أكثر من التوبة والاستغفار، والصلاة في جوف الليالي، وتصدقة على المحتاج فإنهما مطفئتان للخطايا كما يطفئ الماء النار..

وما يصيبك من هم ولا غم ولا أذى إلا كفَّر الله بها عنك من الخطيئات.

واشكر الله على الهداية والتوفيق .. وتذكر ما أعده الله لعباده التائبين من عظيم الثواب والحسنات .. فما هي إلا أنفاس معدودات وأيام معلومات، فإذا الدار غير الدار .. والحال غير الحال: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[لقمَان: ٣٤].

اللهم اجعلنا من التوابين، واجعلنا من المتطهرين، واجعل خير أعمارنا أواخرها، وخير أعمالنا خواتمها، وخير أيامنا يوم نلقاك، فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت ولينا في الدنيا والآخرة، توفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين واجعل لنا لسان صدق في الآخرين، واجعلنا من ورثة جنة النعيم، إنك وحدك أهل التقوى وأهل المغفرة، ربنا اغفر لنا ولوالدينا وللمسلمين والمسلمات وللمؤمنين والمؤمنات.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين.

***

أهم المراجع

- كتب التفسير"تفسير آيات التوبة"
- الداء والدواء، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) حققه: مُحَمَّد أجمل الإصْلاَحي، خرج أحاديثه: زائد بن أحمد النشيري، ط دار عالم الفوائد بجدة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ.
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م
- نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، المؤلف : عدد من المختصين بإشراف الشيخ/ صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي، الناشر : دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة : الرابعة.
- شرح رياض الصالحين، لمحمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ) الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة: ١٤٢٦ هـ
- أريد أن أتوب ولكن لمحمد المنجد
- التوبة النصوح لسليم الهلالي
- أبشروا أيها التائبون أحمد منازع علي
- ففروا إلى الله أبو ذر القلموني
- المنتقى من ذم الهوى(لابن الجوزي) خالد أبو صالح
- شجرة المعارف والأحوال (العز بن عبدالسلام) عناية/ حسان عبدالمنان

- الآداب الشرعية والمنح المرعية، لمحمد بن مفلح بن محمد بن مفرج، أبو عبد الله، شمس الدين المقدسي الرامينى ثم الصالحي الحنبلي (المتوفى: ٧٦٣هـ)، الناشر: عالم الكتب
- صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة، لعلوي بن عبد القادر السَّقَّاف، الناشر : الدرر السنية – دار الهجرة، الطبعة : الثالثة ، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٦ م

فهرس الكتاب

الموضوع الصفحة